ترجمة الأعلام والوظائف في نقش قلعة الأزرق الأيوبي
القسم الأول

عارف الدهيثم

المقدمة

تبعد منطقة الأزرق عن عمّان 115كم شرقًا، وتشرف على مدخل وادي السرحان الشمالي الغربي، وهو وادٍ عظيم قليل العمق يشق طريقه باتجاه الجنوب الشرقي حتى يدخل أراضي المملكة العربية السعودية، ونظرًا لأهمية منطقة الأزرق فقد دُشِّن طريق ذيوكليتيانوس Strata Dioclitiana في العصر الروماني ليربط منطقة الأزرق ووادي السرحان ببصرى الشام وغيرها من المناطق.

لهذا الطريق عدة أفرع أمكن التعرف عليها من خلال أعمال المسح الأثري، فالأول يأتي من بصرى الشام باتجاه الأزرق عبر دير القن ودير الكهف والبشرية والقسطلية وغدير الملّاح وصولًا إلى الأزرق (الحصان 1999: 346)، وهذا الطريق ذكرته الرحالة آن بلنت سنة 1878 أثناء رحلتها إلى نجد مع زوجها مرورًا بمنطقة جنوب سوريا (بلنت 2007، 1: 87)، وهناك طريق "قادم من عمرة وعميرة باتجاه الحصينيات، القحاطي، الحلابات، الأزرق، وطريق آخر من القحاطي باتجاه الحبابيات والأزرق" (الحصان 1999: 346)، والطريق من الحلابات إلى الأزرق ذكره بتلر أثناء زيارته قصر الحلابات وحمام السراح بداية سنة 1905، حيث ذكر بأنه إلى الشرق من حمام السراح بحوالي ست ساعات توجد تلال المناسف ثم ثلاث ساعات باتجاه الجنوب توجد قلعة الأزرق (Butler *et al.* 1930, 1: 37)، ويرى غوانمة أن الأزرق كانت تشكل الحد الشرقي لإمارة الكرك الأيوبية "وهي الإمارة التي أسسها الملك الناصر داود[1] بن المعظم عيسى، وكان يتجسد فيها الكيان الأردني الحالي أو النطاق السياسي والحدود التي تشغلها حاليًا المملكة الأردنية الهاشمية، وتشكل هذه المنطقة قطاعًا جغرافيًا طوليًا، فهي تمتد من "نهر اليرموك شمالًا إلى معان وخليج العقبة جنوبًا، ومن الأزرق وباير والجفر شرقًا إلى نهر الأردن والبحر الميت ووادي عربة غربًا" (غوانمة 2015: 26)، ويرى الدكتور محمد عدنان البخيت أن الخط الواصل ما بين بركة زيزيا والأزرق كانت تشكل الحد الشمالي لمملكة الكرك في العصر المملوكي، بينما الحد الشرقي لهذه المملكة يمتد ما بين الأزرق وبلدة العُلا[2] (البخيت 2009: 25).

وقد لعبت الأزرق دورًا تجاريًا مهمًا خلال فترة الحروب الصليبية، حيث كانت القوافل التي تسير من الشام إلى مصر وبالعكس عبر الطريق الشرقي (طريق البرية) والذي يمر بالأزرق والجفر –وهي واحات عامرة بالماء والعشب– ثم أيلة فصدر[3]

1. الملـك الناصر صلاح الدين أبو المفاخـر داود ابن الملك المعظم عيسـى ابن العادل، وُلد بدمشق سـنة 603 هـ، استلم حكم دمشق بعد وفاة والده حتى سـنة 626 هـ ثم حكم الكرك بعد خروجه من دمشق، توفي سنة 656 هـ (الذهبي 1996، 23: 376–381).
2. العُلا: بضم أوله والقصر وهو جمع العُليا، وهو اسـم لموضع من ناحية وادي القُرى بينها وبين الشام (الحموي 4: 163).
3. صدر: قلعة خراب بين القاهرة وأيلة (الحموي 3: 450).

فالقاهرة، حيث كان يُخشى عليها من خطر اعتراض الصليبيين في كل من الكرك والشوبك، ولهذا كان يفضل المرور من الطريق البعيد عند حافة الصحراء، أما القوافل العسكرية فكانت لا تخشى المرور بالقرب من تحصينات الفرنج في جنوب الأردن معتمدة في ذلك على قوتها الذاتية (غوانمة 1980: 342).

ذكر الأزرق عند المؤرخين والرحالة

ورد ذكر الأزرق عند عدد من المؤرخين العرب والمسلمين منهم:

1– ذكر الطبري أن الخليفة هشام بن عبدالملك كان على خلاف مع الوليد بن يزيد بن عبدالملك وأن الأخير نزل منطقة الأزرق قبل خلافته "وكان هشام يعيب الوليد ويتنقّصه، وكثر عبثه به وبأصحابه وتقصيره به، فلما رأى ذلك الوليد خرج وخرج معه ناس من خاصته ومواليه فنزل بالأزرق، بين أرض بلقين وفزارة على ماء يُقال له الأغدف [4]" (الطبري، 7: 211).

2– ذكر ابن الأثير عن أحداث سنة 125 هـ "وكان هشام يعيب الوليد وينتقّصه ويصر به فخرج الوليد ومعه ناس من خاصته ومواليه فنزل بالأزرق على ماء له بالأردن... فلم يزل الوليد مقيمًا بتلك البرية حتى مات هشام" (ابن الأثير 1987، 4: 468)، ثم ذكر من أحداث 126 هـ أن الوليد "بالأغدف من عمان" (ابن الأثير 1987، 4: 483).

3– ذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان "الأزرق: بلفظ الأزرق من الألوان، والأزرق: ماء في طريق حاج الشام دون تيماء[5]" (الحموي، 1: 200)، وهذا الوصف يؤكد أن أصل التسمية بسبب وفرة المياه وزرقتها، كما أنه يدل على وجود طريق للحاج الشامي يمر عبر الأزرق، وعلى الرغم من أن الحموي ذكر الكثير من القلاع والقصور والحمامات وغيرها من المواقع إلا أنه لم يذكر وجود قلعة أو قصر في الأزرق، ويعود السبب في ذلك أن ياقوت توفي قبل إعادة بناء القلعة بحوالي ثماني سنوات، ونقل البغدادي عن الحموي نفس الوصف "الأزرق: بلفظ اللون، والأزرق: ماء في طريق حاج الشام دون تيماء" (البغدادي 1992، 1: 65).

4– عند حديث ابن الجوزي والنويري عن الخلافات بين ملوك بني أيوب في أحداث سنة 639 هـ فإنهما يذكران الأزرق من محطات الطريق إلى بغداد حيث "أقام الجواد[6] عند الناصرداود (بالكرك)، فتخيل منه، فاعتقله وبعث به إلى بغداد في البرية تحت الحوطة، فنزل قريبًا من الأزرق، فعرفه بطن من العرب فأطلقوه فعاد إلى دمشق" (ابن الجوزي 2013، 22: 373، النويري، 29: 161).

5– ذكر أبو شامة عن حوادث سنة 558 هـ أن الوزير المصري شاور[7] وصل إلى نور الدين زنكي[8] في الشام يطلب منه مساعدته للعودة إلى منصب الوزارة في مصر بعد أن أُخِذت منه، وفي سنة 559 هـ سار أسد الدين شيركوه[9] بعساكره إلى مصر مرورًا بالأزرق " فطلب منه إرسال العساكر إلى مصر ليعود إليها... ونور الدين يقدم في ذلك رجلًا ويؤخر أخرى... وتارة يمنعه خطر الطريق وكون الفرنج فيه إلا أن يوغِلوا في البرّ، فيتعرضوا لخطر آخر مع الخوف من الفرنج

4. الغدف هو وادٍ كبير يصب في قاع الأزرق ويمر إلى الغرب من قصر الطوبة، ويوجد في تقسيمات دائرة الأراضي والمساحة قرية تحمل اسم "موقع الغدف" وتحمل الرقم 1319، وحوض باسم "حوض الغدف" ويحمل الرقم 1، حيث يوجد قصر الطوبة الأموي في هذا الحوض.

5. تيماء: بالفتح والمد، بُليد في أطراف الشام بين الشام ووادي القرى (الحموي 2: 78).

6. الملك الجواد: يونس (مظفر الدين) بن مودود (شمس الدين) ابن الملك العادل بن أيوب وهو أحد ملوك الدولة الأيوبية، حكم دمشق سنة 635 هـ بعد وفاة الملك الكامل بن العادل وتوفي سنة 641 هـ (الزركلي 2002، 8: 263).

7. أبوشجاع شاور بن مجير بن نزار بن عشائر بن شأس بن مغيث بن حبيب ابن الحارث بن ربيعة بن أبي ذؤيب عبدالله، وهو وزير الخليفة الفاطمي في مصر، تولى الوزارة في مصر سنة 558 هـ وقُتل سنة 564 هـ (ابن خلكان 2: 439–443).

8. الملك العادل نور الدين محمود ابن الأتابك قسيم الدولة، صاحب الشام، وُلد سنة 521 هـ، يرجع إليه الفضل في القضاء على الدولة الفاطمية في مصر وعودة الخلافة العباسية إليها، وهو من المجاهدين الأوائل ضد الصليبيين، توفي سنة 569 هـ (الذهبي 1996، 20: 531–534).

9. أبو الحارث شيركوه بن شاذي بن مروان الملقب الملك المنصور أسد الدين، عم صلاح الدين الأيوبي (ابن خلكان 2: 477–481).

أيضًا، ثم استخار الله وأمر أسد الدين بالتجهز للمسير معه... وكان هوى أسد الدين في ذلك... فتجهز وسار مع شاور في جمادى الآخرة من سنة تسع وخمسين (559 هـ)... وساروا جميعًا وسار معهم نور الدين إلى أطراف بلاد الشام مما يلي الفرنج بعساكره ليشغلهم عن التعرض لأسد الدين" (أبو شامة 2002، 1: 356-357)، حيث "سلك بقواته الطريق المؤدية إلى مصر على حافة الصحراء عابرًا الأردن من الشمال إلى الجنوب مرورًا بالأزرق والجفر ومعان ثم أيلة ومنها إلى صدر فالسويس والبركة ثم إلى القاهرة" (غوانمة 1980: 85).

6- ذكر أبو شامة أنّ أسد الدين شيركوه سار إلى مصر للمرة الثانية برفقة ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي بتوجيه من السلطان نور الدين زنكي سنة 562 هـ "فلما كان هذه السنة تجهز وسار إليها، وسيّر نور الدين معه جماعة من الأمراء وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب... ثم أن أسد الدين جدّ في السير على البرّ وترك بلاد الإفرنج عن يمينه فوصل إلى الديار المصرية" (أبو شامة 2002، 2: 7)، ويؤكد ذلك ابن واصل ايضًا "ثم سار أسد الدين رحمه الله إلى الديار المصرية وترك بلاد الفرنج عن يمينه فوصل الديار المصرية" (ابن واصل، 1: 149)، وهذا يعني انه مرَّ بالأزرق أو بالقرب منها للمرة الثانية.

7- ذكر الأصفهاني الأزرق عند مرور شمس الدولة تورانشاه [10] بها سنة 574 هـ متوجهًا من الشام إلى مصر "وركبنا وودعناه عِند ركُوبه في مرج الصُّفّر[11] وسألنا الله أن ينجده في السّفر بالظفر، وكان رحيله من بصرى يوم الثُلاثاء... الثَّامن والعشرين من الشَّهر (ذي القعدة 574 هـ) ومنه إلى الْأَزْرَق ومنه إلى الجفر ويرد إرم وأيلة ويصدر إلى صدر" (الأصفهاني، 3: 154، 155)، وينقل عنه أبو شامة نفس الحادثة "ومرَّ على بُصرى ومنها إلى الأزرق ومنه إلى الجفر إلى أيلة إلى صدر، ووصل معه خلق كثير من التجار والرجال والنساء والأطفال" (أبو شامة 2002، 3: 14).

8- وذكر أبو شامة الأزرق عند الحديث عن رحيل السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة 578 هـ من مصر إلى الشام "وبعد خمس ليالٍ وصل عقبة أيلة، وهناك سمع باجتماع الكفار بالكرك لقصد قطع الطريق، فاحترز بحفظ الأطراف وجاز بحسمى[12] ثم عقبة شتار[13] ثم القريتين وأغار في تلك الأيام على أطراف بلاد العدو ثم تجرَّد السلطان في كماته وسلك بهم سمت الكرك إلى الحسا وأمَّر أخاه تاج الملوك بوري[14] على الناس وأمره أن يسير بهم يمنة منه ثم اجتمعوا بالسلطان بالأزرق بعد أسبوع" (أبو شامة 2002، 3: 70)، ونفس القصة يذكرها ابن واصل في مفرج الكروب (ابن واصل، 2: 114).

9- ذكر المغربي المتوفي سنة 673 هـ قلعة الأزرق بشكل واضح بأنها حصن "الأزرق وهو حصن بناه المعظم[15] على طرف البرية التي فيها الطريق إلى الحجاز، وعلى اليمين طريق العُلا وتبوك[16] وعلى اليسار طريق تيماء، وفي شمالي الأزرق بصرى قاعدة حوران، على أربع مراحل من دمشق" (المغربي 1958: 85)، وكلام المغربي يشير إلى القلعة نفسها، حيث أنه توفي بعد إعادة بناء القلعة بحوالي 39 عامًا، بينما كلام الحموي عن الأزرق كمنطقة جغرافية تكثر فيها المياه ولم

10. الملك المعظم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب صاحب اليمن، أخو صلاح الدين الأيوبي وهو أكبر سنًا منه، توفي سنة 576 هـ (الذهبي 1996، 21: 53).

11. مرج الصُّفّر: بالضم وتشديد الفاء، منطقة بدمشق (الحموي 5: 118).

12. حسمى: أرض ببادية الشام، بينها وبين وادي القرى ليلتان، وأهل تبوك يرون جبل حسمى في غربيهم (الحموي 2: 298).

13. شتار: نقَب شِتار: نقب في جبل من جبال السراة بين أرض البلقاء والمدينة على شرقي طريق الحاج يفضي إلى أرض واسعة معشبة يشرف عليها جبال فاران وهي في قبلي الكرك. (الحموي 3: 368).

14. تاج الملوك أبو سعيد بوري بن أيوب بن شاذي بن مروان، أخو صلاح الدين وهو أصغر أبناء أبيه، وُلد سنة 556 هـ وتوفي سنة 579 هـ (ابن خلكان 1: 291-292).

15. وقع المغربي ومن بعده أبو الفداء في نسب قلعة الأزرق إلى المعظم عيسى كما يظهر على نقش القلعة.

16. تبوك: بالفتح ثم الضم وواو ساكنة، موضع بين وادي القُرى والشام، بين الحِجر وأول الشام على أربع مراحل من الحجر نحو نصف طريق الشام (الحموي 2: 17).

يذكر القلعة لأنه توفي قبل إعادة بنائها على يد عز الدين أيبك.

10– نقل أبو الفداء كلام المغربي "وفي ذلك الخط الجنوبي الأزرق، وهو حصن بناه الملك المعظم على طرف البرية التي فيها الطريق إلى الحجاز، وعلى اليمين طريق العُلا وتبوك وعلى اليسار طريق تيماء وخيبر[17]، وبصرى تقع عن الأزرق في جهة الشمال" (أبو الفداء، تقويم البلدان: 229)، ويفهم من كلام المغربي وأبي الفداء أن قلعة الأزرق على مفترق طريقين، الأول باتجاه العُلا وتبوك والثاني باتجاه تيماء وخيبر.

11– ذكر العمري الأزرق بشكل غير مباشر عند حديثه عن طريق الحج الشامي أن "الركب يخرج من دمشق ويسير في التوجه إلى زرع[18]على بصرى على زيزاء على الكرك على معان على عقبة الصوان على تبوك..." (العمري 2010، 2: 300)، ولكنه يؤكد وجود طريق آخر أقصر من الطريق الأولى "وللحجاج طريق أخرى أقصر من هذه، كان الطريق عليها قديمًا وهو على صرخد[19] على تيماء إلى المدينة الشريفة، وهي أقرب من هذا بنحو خمسة[20] أيام" (العمري 2010، 2: 301، الجزيري 2002، 2: 45)، وهذا الطريق الأقصر كان يمر بالأزرق، حيث يربط ياقوت الحموي تيماء بطريق الحج "وتيماء بُليد في أطراف الشام بين الشام ووادي القرى على طريق حاج الشام ودمشق" (الحموي، 2: 78) وهذه إشارة إلى وجود طريق للحج الشامي يمر بالأزرق ثم إلى تيماء، والتي أكدها المغربي وأبو الفداء عند ربطهما بين الأزرق وتيماء.

12– ذكر شيخ الربوة في حديثه عن الكرك في العصر المملوكي "ومن جند الكرك اللجون والحسا والأزرق والسلط ووادي موسى... وبالغور الزرقاء والأزرق والجفار والتيه[21] وزغر[22]" (شيخ الربوة 1865: 213).

13– ذكر سيلاه ميرل الأزرق أثناء زيارته لقلعة الزرقاء (قصر شبيب) سنة 1876 "خلال وجودنا في قلعة الزرقاء ومحادثاتنا مع الأشخاص هناك، فقد حاولت معرفة شيء ما عن شرق البلاد، فقالوا إن العرب الذين يذهبون إلى شرق البلاد يأخذون معهم مؤونة ثلاثة أيام من الماء، ويوجد هناك قلعة ومستنقعات كبيرة ونهر يتدفق باتجاه الشرق، وسألت عن المسافة إلى صلخد وأم الجمال وبصرى من المكان الذي تحدثوا عنه، إلا أنهم أجابوا جميعهم بأن قلعة الزرقاء كانت هي المكان الأقرب من أية نقطة من النقاط التي ذكرتها، وقال أحد الرجال بأن القلعة هناك مثل قلعة الزرقاء، وقال آخر أنه يوجد هناك ماء دائمًا كما يوجد مستنقع كبير وطيور مائية، ويوجد هناك نهر الأزرق وجسر الأزرق، وقال رجل كبير السن جاء إلى القلعة عندما كنا نحتسي قهوتنا، أنه قد جاء مرة من المكان الذي كنا نتحدث إلى قلعة الزرقاء في خلال يوم واحد، وقد قام برحلته منذ الصباح الباكر ووصل إلى هنا في وقت متأخر من الليل" (ميرل 2010: 396، 397).

14– ذكرت آن بلنت أن زوجها وولفريد وأثناء إقامتهما في مزيريب جنوب سوريا سنة 1878 كان مُصرًا على استكشاف وادي السرحان الذي لم يحدث أن وصفه أحد من الأوروبيين من قبل، كما يُصرُّ وولفريد على الذهاب أولًا إلى الأزرق، وتذكر وجود طريق يمتد على شكل مستقيم من صلخد باتجاه الجنوب الشرقي باتجاه الأزرق (بلنت 2007، 1: 87)، كما تذكر بأن الأزرق هي أول المحطات من جنوب سوريا باتجاه وادي السرحان "والأزرق هذه أول

17. خيبر: ناحية على ثمانية بُرُد من المدينة لمن يريد الشام (الحموي 2: 468).

18. زرع: قاعدة من قواعد حوران، بينها وبين صرخد مسيرة يوم (أبو الفداء، تقويم البلدان: 259).

19. صرخد: بالفتح ثم السكون، والخاء معجمة، والدال مهملة: بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق، وهي قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة (الحموي 3: 455).

20. ستة أيام عند (الجزيري 2002، 2: 45).

21. التيه: الموضع الذي ظلّ فيه موسى بن عمران عليه السلام وقومه، وهي أرض بين أيلة (العقبة) ومصر وبحر القلزم (الأحمر) وجبال السراة (الحموي 2: 81).

22. زغر: قرية بمشارف الشام، بينها وبين القدس ثلاثة أيام (الحموي 3: 161).

مرحلة على طريق سفرنا من هنا، والأزرق فيها آبار وقلعة قديمة" (بلنت 2007، 1: 92)، ثم تذكر "كان مسارنا يتجه جنوبًا على الطريق المؤدية إلى الأزرق" (بلنت 2007، 1: 96)، ولكنها لم تزر الأزرق بل غيرت مسارها باتجاه وادي راجل.

15– ذكرت الرحالة البريطانية جيرترود بيل أثناء رحلتها من القدس إلى حلب سنة 1905 قلعة الأزرق "وعلى خط مستقيم جنوب صلخد توجد قلعة متهدمة رائعة هي قلعة الأزرق في واحة توجد فيها أجمات مليئة بالخنازير البرية" (بيل 2013: 134).

16– ذكرالرحالة الفنلندي جورج أوغست والن الذي زار منطقة الجوف عام 1845 بأن الأزرق محطة من محطات الطريق بين الجوف ودمشق حيث يذكر أنه "في الطريق من الجوف إلى دمشق توجد الآبار أو مواضع المياه التالية كما حددها لي أهل الجوف، وهذه المواضع هي: نبك (في وادي السرحان وعلى مسافة يوم واحد من الجوف)، مغيرة، غراب، قراقر، الهزيم، الأزرق، بصرى، حريرة، رزدالي على طريق الحج، العوبج، دمشق" (البادي 2002: 40).

17– الرحالة الفرنسي تشارلز هوبر الذي زار منطقة الجوف ووادي السرحان عام 1878 ومرَّ بالقرب من القلعة "في صبيحة 16مايو (أيار) خيمنا على بعد ثلاث كيلومترات شمال شرق القصر الأزرق وللأسف لم أستطع الاقتراب منه أكثر من ذلك لأن جميع الأراضي المحيطة بالقصر المبني في منخفض كانت لا تزال موحلة بسبب أمطار الشتاء، ومن بعيد رأيته عبارة عن برجٍ مربعٍ مبني من الحجر المنحوت، معزول تمامًا وقد بدت لي أعاليه أطلالًا، من المرجح أن القصر قائم منذ أقدم العصور ولا بد أنه كان إحدى محطات الطريق المؤدية إلى وسط الجزيرة العربية عبر دومة الجندل" (هوبير2003: 18).

ويضيف "المكان مثير للاهتمام، فمن هنا يبدأ وادي السرحان الممتد جنوبًا حتى آبار جراوي على مسافة يومين من الجوف... لم نتوقف على مرأى من القصر إلا مدة تناول الغداء ثم انطلقنا فورًا، إذ لا تقترب المجموعات القليلة العدد كمجموعتنا عادة إلى هذا الحد من هذا المكان الذي اشتهر بأسوأ سمعة، فاللصوص يرتادون باستمرار القصر الأزرق بصفته نقطة عبور" (هوبير2003: 18).

18– الرحالة البريطاني آرتشيبولد فوردر الذي زار منطقة الجوف مرورًا بمنطقة الأزرق عام 1900، يصف إحدى القوافل التجارية التي مرَّت بالأزرق "ثم قدمت المجموعة الأولى من القافلة الضخمة المكونة من حوالي أربعمائة جمل، تلته المجموعة الثانية، فالثالثة، ثم الأخيرة، كانت كل واحدة من هذه المجموعات تحت حراسة حوالي خمسين فارسًا مسلحين برماح طويلة وبنادق وسيوف وطبنجات، وكانت القافلة مؤلفة من ستمائة جمل، وكان من المقدّر لرحلتنا أن تستغرق أربعة أيام ونصف للوصول إلى كاف[23]، كان يتوجب علينا قطع المسافة على مراحل، حيث أن الجمال التي كانت محمّلة بالقمح والشعير لمقايضتها بالملح والتمور لم تكن قادرة على قطع مسافات طويلة دون استراحة، وكانت القوافل تتعرض للنهب من قبل بعض الأعراب، باستطلاعي للمنطقة المحيطة لمحت على تلة مشرفة على مكان وجودنا مجموعة من الرجال على صهوات الجياد –كانوا حوالي عشرة رجال– هبّ عدد من رجالنا إلى صهوات جيادهم وكرّوا باتجاههم كالليوث الهائجة، فما كان من الدخلاء الجدد إلا أن لووا أعناق جيادهم ثم ولّوا الأدبار مبتعدين عن المكان، بالرغم من انطلاقهم بأقصى سرعة ممكنة، فقد عمد رجالنا إلى إطلاق نيران بنادقهم باتجاه المطلوبين فأصابوا واحدًا منهم في ذراعه، ممّا حمله على إلقاء رمحه" (فوردر 2011: 183–185)، وهذا الوصف يؤكد أن التجارة ظلت مستمرة خلال الفترة العثمانية مرورًا بالأزرق ولكن مع

23. كاف: إحدى قرى محافظة القريات شمال غرب المملكة العربية السعودية، وهي قرية كبيرة تتكون من جزأين يفصل بينهما بساتين النخيل، وكانت من مناطق استخراج الملح الخشن الذي يُصدَّر إلى الشام عبر ما يُعرف بطريق الملح وتعرف بكثرة المياه فيها (فوردر 2011: 189).

غياب التواجد الرسمي للسلطات العثمانية والذي نتج عنه كثرة قطاع الطريق وقيام التجار بحماية قوافلهم بأنفسهم.

19– الرحالة التشيكي موزيل الذي زار قلعة الأزرق عام 1909 أثناء رحلته من الجزيرة العربية إلى دمشق وقال عنها "تقع أطلال قلعة الأزرق العتيدة عند حافة جبل بركاني ومستنقع واسع، وكان وصولنا إليها بعيد الفجر" (موزيل 2010: 269).

20– الرحالة البريطانية جيرترود بيل زارت قلعة الأزرق ووثقت هذه الزيارة برسالتها المؤرخة بتاريخ 31 كانون الأول 1913 حيث تقول "كان مخيمنا جميلًا بجانب بعض الينابيع –يا للفرح بوجود الماء النظيف– انتقلنا هذا الصباح إلى قصر الأزرق الذي يقع بين أشجار النخيل ويحيط به عدد كبير من الينابيع... جلسنا تحت شجرات النخيل... أظن أني وجدت كتابة جديدة إغريقية، عليّ أن آخذ نسخة منها غدًا" (بيل، رسائل جيرترود بيل: 301، 302).

21– لورنس زار قلعة الأزرق عام 1917 وأقام فيها مع قوات الثورة العربية "لم يكن الشريف علي قد رأى الأزرق قبلًا، فتسلقنا القمة المحجوجرة... ثم حَمَلَنا الخيال إلى التحدث عن الجحافل الرومانية التي ذرعت هذه الأماكن في سالف الزمان، وفجأة من على القمة بدت لناظرنا القلعة الزرقاء القائمة فوق أكمة صخرية عالية ومن حولها في الأسفل بساتين النخيل وينابيع المياه العذبة الرقراقة والمروج الخضراء" (لورنس 1963: 302).

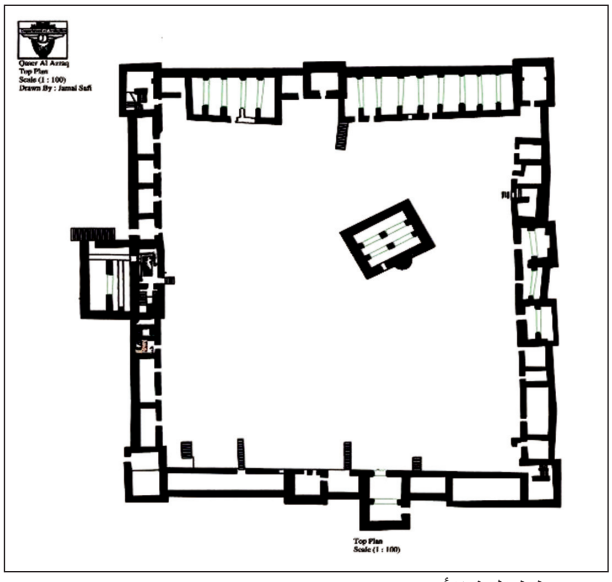

1. مخطط قلعة الأزرق.

نقش قلعة الأزرق

لقد حظيت قلعة الأزرق باهتمام الأيوبيين خلال فترة الحروب الصليبية، حيث أنها تقع على رأس وادي السرحان وهو الوادي الذي يحتضن طريق القوافل الداخلي (طريق وادي السرحان)، وتحيط بالقلعة واحة غنية بالماء وأشجار النخيل، وتوفُّر المياه العذبة كان من أسباب إقامة القلعة في هذه المنطقة (هاردنج 1965: 155)، وهي قلعة مربعة الشكل تقريبًا 79×72م) (**الشكل 1**).

بُنيت من الحجارة البازلتية، تاريخ بنائها غير واضح بشكل دقيق، ويمكن أن تكون مرت بعدة مراحل بناء وترميم وإصلاح، حيث توجد كتابة باللاتينية واليونانية على مذبح هيكل تشير أن القلعة كُرِّست على اسمي الإمبراطور ذيوكليتيانوس والإمبراطور مكسميانوس ويعود لحوالي 300م، وهناك كتابة أخرى تحمل اسم الإمبراطور جوفيان 363م، ومن المحتمل أن هذا الإمبراطور رمم القلعة أو أصلحها (هاردنج 1965: 155، 156)، وتضم القلعة من الداخل إسطبلات خيل وعدة غرف وساحة داخلية واسعة، ومسجدًا صغيرًا من الفترة الأيوبية، وقد بُنيت عدة أبراج مربعة الشكل في الزوايا الأربعة مع وجود أبراج مربعة أخرى في كل من الجدار الغربي والشمالي والشرقي، أما الجدار الجنوبي فيوجد فيه المدخل الرئيسي الذي بني أو رُمِّم في فترة حكم الأمير عز الدين أيبك المعظَّمي أمير صرخد في الفترة الأيوبية وتحديدًا خلال النصف الأول من القرن السابع الهجري (**الشكل 2**)، وقد ثبت ذلك من خلال نقش على حجر بازلتي فوق مدخل القلعة من الجهة الجنوبية يتكون من أربعة أسطر يذكر فيه (**الشكل 3**):

بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة هذا القصر المبارك الفقير إلى الله عز الدين أيبك أستاذ دار الملك المعظّم بولاية علي بن الحاجب وعلي بن قرجلة في سنة أربع وثلاثين وستمائة

حيث يرد في هذا النقش عدد من أسماء الأعلام والوظائف من فترة الدولة الأيوبية، لذلك يتمحور هذا المقال على ترجمة أسماء الأعلام والوظائف الواردة في النقش، وقد قسم المقال إلى قسمين: الأول: يتناول شخصية الملك المعظم عيسى باعتباره الشخصية الأقدم من بين هذه الشخصيات، ومن أجل تسلسل الأحداث في الدولة الأيوبية، والثاني: يتناول شخصية الأمير عز الدين أيبك حاكم صرخد في تلك الفترة وعلي بن الحاجب وعلي بن قرجلة، مع تناول الوظائف الواردة في النقش (الاستادارية، الولاية، الحجابة).

وقد اعتمدت على ذكر الأحداث بالتاريخ الهجري مع ذكر قاعدة تحويل التاريخ الهجري إلى التاريخ الميلادي على النحو الآتي:

السنة الميلادية = (التاريخ الهجري×0,97)+622

الدولة الأيوبية

وحتى نستطيع فهم الشخصيات الواردة في النقش لا بد من استعراض موجز لتاريخ الدولة الأيوبية منذ النشأة وحتى السقوط، وذلك لأن تاريخ الشخصيات الواردة في النقش لا ينفصل عن تاريخ الدولة الأيوبية

2. مدخل قلعة الأزرق.

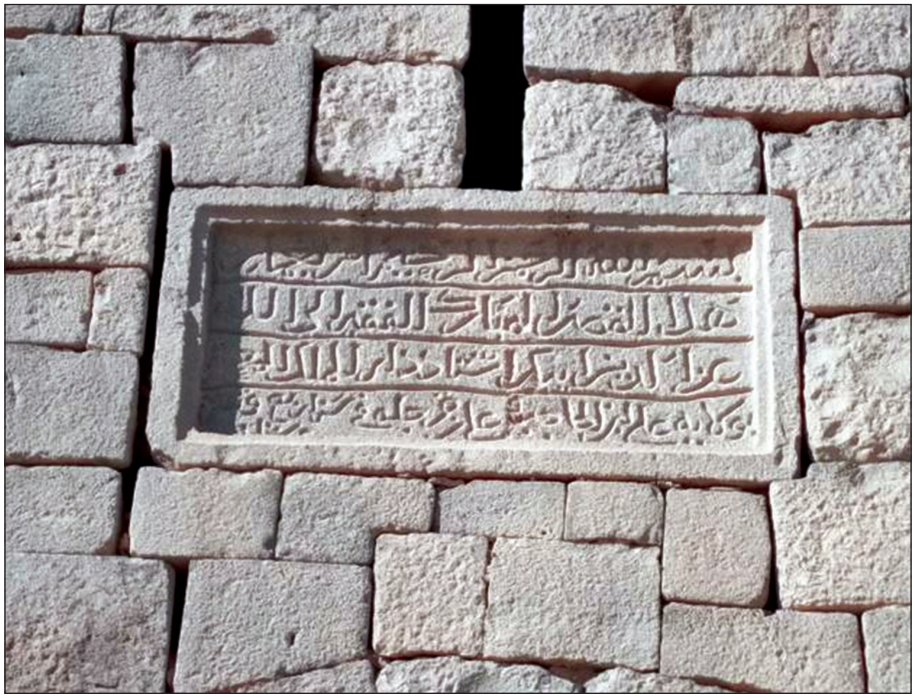

3. النقش اعلى المدخل.

خلال الفترة الممتدة منذ تولي الملك العادل[24] للحكم سنة 596 هـ (ابن واصل، 3: 112، ابن الأثير 2003، 10: 393) حتى وفاة الأمير عزالدين أيبك سنة 646 هـ.

تأسست الدولة الأيوبية على يد صلاح الدين الأيوبي[25] سنة 570 هـ والذي استطاع توحيد بلاد الشام ومصر واليمن والحجاز والجزيرة الفراتية[26] تحت سلطانه، ونظرًا لهذا الاتساع الكبير للدولة فقد "أحس صلاح الدين أن إدارة مملكته تحمل في ثناياها بذور انهيارها لاتساعها ولكثرة القلاقل التي تنتظرها بعد وفاته، فحاول سنة 580 هـ أن يُرسي قواعدها معتقدًا أن تقسيم البلاد بين أبنائه وأقاربه سينقذها من ذلك، فخصَّ أبناءه بالأجزاء الرئيسية من المملكة واستبقى المناصب الثانوية لإخوته وأقاربه" (الخطيب 2001: 29)، وبعد وفاته سنة 589 هـ انقسمت مملكته بين أبنائه وأقاربه، وأهمهم:

1– الملك الأفضل[27] الذي أخذ دمشق والساحل والقدس وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس[28] وتبنين[29] وجميع الأعمال إلى الداروم[30] (ابن واصل، 3: 3، ابن الأثير 2003، 10: 225).

2– الملك العزيز عثمان[31] الذي أخذ مصر (ابن واصل، 3: 3، ابن الأثير 2003، 10: 225).

3– الملك الظاهر[32] الذي أخذ حلب وأعمالها (ابن واصل، 3: 3، ابن الأثير 2003، 10: 225).

4– الملك العادل سيف الدين أبو بكر شقيق صلاح الدين ويده اليمنى أثناء حروبه مع الصليبيين والذي أخذ الشوبك والكرك والبلاد الشرقية (ابن واصل، 3: 4).

5– الملك المنصور ناصر الدين[33] محمد ابن الملك المظفر أخذ حماة وسلميَة[34] ومعرّة النعمان[35] ومنبج[36] وقلعة نجم[37] (ابن واصل، 3: 4).

6– الملك المجاهد[38] أسد الدين شيركوه بن محمد شيركوه أخذ حمص والرحبة وتدمر (ابن واصل، 3: 4).

7– الملك الأمجد[39] أخذ بعلبك وأعمالها (ابن واصل، 3: 4).

ونظرًا لسوء سيرة الملك الأفضل في دمشق وسيطرة الحاشية عليه وإهماله شؤون الحكم، بحيث

24. أبو بكر محمد بن أبي الشكر أيوب بن شاذي بن مروان الملقب بالملك العادل سيف الدين، وُلد في دمشق سنة 540 هـ وتوفي سنة 615 هـ (ابن خلكان، 5: 74–78).

25. أبو المظفر يوسف بن أيوب بن شاذي الملقب الملك الناصر صلاح الدين، وُلد سنة 532 هـ وتوفي سنة 589 هـ (ابن خلكان، 7: 139 وما بعدها).

26. الجزيرة: المنطقة بين نهري دجلة والفرات، مجاورة للشام، تشمل ديار مضر وديار بكر، سُميت بالجزيرة لأنها بين دجلة والفرات، بها مدن جليلة وحصون وقلاع كثيرة (الحموي، 2: 156).

27. أبو الحسن علي ابن السلطان صلاح الدين وهو أكبر أبنائه، وُلد سنة 565 أو 566 هـ وتوفي سنة 622 هـ (ابن خلكان، 3: 419–421).

28. بانياس: اسم لبلدة صغيرة ذات أشجار محمضات وغيرها وأنهار، وهي على مرحلة ونصف من دمشق من جهة الغرب بميلة إلى الجنوب (أبو الفداء، تقويم البلدان: 249).

29. تبنين: بلدة في جبال بني عامر المطلة على بلدة بانياس بين دمشق وصور (الحموي، 2: 16).

30. الداروم: قلعة بعد غزة للقاصد إلى مصر، الواقف فيها يرى البحر، إلا أن بينها وبين البحر مقدار فرسخ، خربها صلاح الدين لما ملك الساحل في سنة 584 هـ (الحموي، 2: 483).

31. الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان ابن السلطان صلاح الدين الأيوبي، وُلد في القاهرة سنة 567 هـ وتوفي سنة 595 هـ (ابن خلكان، 3: 251).

32. الملك الظاهر غياث الدين أبو منصور غازي ابن السلطان صلاح الدين، وُلد في مصر سنة 568 هـ، ملك حلب لمدة 30 سنة، توفي سنة 613 هـ (الذهبي 1996، 21: 296).

33. الملك المنصور ناصر الدين محمد ابن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماة وأبو ملوكها، توفي سنة 617 هـ (الذهبي 1996، 22: 146، 147).

34. سَلَمْيَة: بُليدة في ناحية البرية من أعمال حماة بينهما مسيرة يومين وكانت تُعد من أعمال حمص (الحموي، 3: 272).

35. المعرّة: مدينة كبيرة قديمة مشهورة من أعمال حمص، بين حلب وحماة، ومنها الشاعر أبو العلاء المعرّي (الحموي، 5: 182).

36. منبج: تقع شمال سوريا، مدينة كبيرة واسعة ذات خيرات كثيرة وأرزاق واسعة في فضاء من الأرض، كان عليها سور مبني بالحجارة محكم، بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ وبينها بين حلب عشرة فراسخ (الحموي، 5: 238).

37. قلعة نجم: قلعة حصينة مطلة على الفرات (الحموي، 5: 182).

38. الملك المجاهد، وُلد في مصر سنة 569 هـ، أعطاه صلاح الدين الأيوبي حمص، وبقي فيها حتى وفاته سنة 637 هـ، وحكم 56 سنة (الذهبي 1996، 23: 39، 40).

39. الملك الأمجد مجد الدين أبو المظفر بهرام شاه ابن نائب دمشق فروخشاه ابن الملك شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك، قُتل سنة 628 هـ (الذهبي 1996، 22: 330).

كانت "الأمور كلها مفوضة إلى وزيره ضياء الدين بن الأثير الجزري[40]، وقد اختلَّت الأحوال به غاية الاختِلال وكثُر شاكوه وقل شاكروه" (ابن واصل، 3: 55)، فقد توجه كل من الملك العزيز وعمه الملك العادل لحصار دمشق وأخذها من الأفضل سنة 592 هـ (ابن الأثير 2003، 10: 393)، وأخذ العادل دمشق وتوجه الأفضل إلى صرخد حسب اتفاق جرى بين جميع الأطراف، ومن هنا بدأت تظهر أطماع الملك العادل وبدأ يفكر في السيطرة على الحكم وإعادة توحيد الدولة الأيوبية كسابق عهدها في عهد صلاح الدين الأيوبي، وعندما توفي الملك العزيز عام 595 هـ (ابن واصل، 3: 83)، خلفه ابنه المنصور[41] الذي كان عمره تسع سنين وشهورًا (ابن واصل، 3: 87)، ونظرًا لصغر سنه فقد اتفق الأمراء في مصر على مراسلة الملك الأفضل في صرخد ليكون أتابكًا[42] لابن أخيه الملك المنصور، لذلك جاء الأفضل إلى مصر في الخامس من ربيع الأول من نفس السنة (ابن واصل، 3: 91)، واستطاع التحكم بأمور مصر، واتفق الأَخَوان الأفضل والظاهر ضد عمهما العادل ملك دمشق، وتوجَّها بعساكر مصر وحلب لأخذ دمشق من عمهما العادل (ابن واصل، 3: 99)، وعندما علم العادل الذي كان في ماردين[43] بذلك، توجه إلى دمشق (ابن واصل، 3: 95) ودخلها واستطاع الصمود ضدهما، وأخذ يثير الشك بين الأخوين واستطاع بحنكته القضاء على التحالف بينهما، وعاد كل من الأفضل إلى مصر والظاهر إلى حلب (ابن واصل، 3: 107)، ثم توجه العادل إلى مصر وانتصر على ابن أخيه الأفضل ودخل القاهرة في 21 ربيع الآخرة عام 596 هـ (ابن واصل، 3: 108، 109) وصار أتابكًا للملك المنصور بن العزيز ثم استقل بالحكم وأصبح هو سلطان الدولة الأيوبية عام 596 هـ (ابن واصل، 3: 112، ابن الأثير 2003، 10: 393، المقريزي 1997، 1: 265) ويلخص أبو شامة ذلك بقوله "ثم جرى بعد وفاة أخيه (صلاح الدين) بينه وبين أولاده أمور... إلى أن استقر له المُلك" (أبو شامة 1947، 1: 303)، وأعاد توحيد الدولة الأيوبية، ولكنه سار على نهج أخيه صلاح الدين الأيوبي بتقسيم الدولة بين أبنائه تحت إشرافه المباشر، حيث "قسم البلاد في حياته بين أولاده، فجعل بمصر الملك الكامل[44] محمد وبدمشق والقدس وطبرية والأردن والكرك وغيرها من الحصون المجاورة لها ابنه المعظم عيسى، وجعل بعض ديار الجزيرة وميافارقين[45] وخلاط [46] وأعمالها لابنه الملك الأشرف موسى[47]، وأعطى الرها[48] لولده شهاب الدين غازي[49] وأعطى قلعة جعبر[50] لولده الحافظ رسلان شاه[51]" (ابن الأثير 2003، 10: 393) "واستناب ببلاد الشرق ابنه

40. أبو الفتح نصر الله بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري، وُلد في جزيرة ابن عمر سنة 558 هـ، انتقل لخدمة صلاح الدين الأيوبي ثم أصبح وزيرًا للأفضل بن صلاح الدين أثناء حكمه لدمشق، توفي في بغداد سنة 637 هـ (ابن خلكان، 5: 389–396).

41. المنصور: الملك المنصور محمد ابن الملك العزيز عثمان ابن الملك الناصر صلاح الدين، تولى الحكم في مصر بعد وفاة أبيه الملك العزيز، وخلعه الملك العادل في 20 شوال سنة 596 هـ بسبب صغر سنه وعدم قدرته على الحكم (ابن تغري بردي، 6: 153، 160).

42. الأتابك: كلمة تركية تعني الأمير أو الوالد، والمراد بها أبو الأمراء، وهو أكبر الأمراء بعد النائب، وتتكون الكلمة من (أتا) وتعني الأب أو الشيخ المحترم لكبر سنه، و(بك) بمعنى أمير، كما تعني الكلمة: مربي الأمير (الشهابي 1999، 1: 13).

43. ماردين: تقع جنوب تركيا الحالية، فيها قلعة مشهورة على قمة جبل الجزيرة، مشرفة على دنيسر ودار ونصيب وذلك الفضاء الواسع (الحموي، 5: 46).

44. أبو المعالي محمد ابن الملك العادل الملقب بالملك الكامل ناصر الدين، سلطان مصر، توفي سنة 635 هـ (ابن خلكان، 5: 79–84).

45. ميافارقين: تقع جنوب شرق تركيا الحالية أشهر مدينة في ديار بكر (الحموي، 5: 273–275).

46. خلاط: تقع جنوب تركيا الحالية، البلدة العامرة المشهورة، في الإقليم الخامس وهي قصبة أرمينيا الوسطى (الحموي، 2: 435).

47. الملك الأشرف مظفر الدين أبو الفتح موسى شاه أرمن بن العادل، وُلد بدمشق سنة 576 هـ، ملك دمشق سنة 626 هـ حتى وفاته سنة 635 هـ (الذهبي 1996، 22: 122–126).

48. الرها: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام (الحموي، 3: 120).

49. الملك المظفر شهاب الدين غازي ابن الملك العادل، توفي سنة 645 هـ (الذهبي 1996، 22: 133، 134).

50. جعبر: بالفتح ثم السكون، وباء موحدة مفتوحة وراء، على الفرات بين بالس والرقة قرب صفين (الحموي، 2: 165).

51. الملك الحافظ نور الدين أرسلان شاه ابن الملك العادل، توفي سنة 640 هـ (الذهبي 1996، 22: 132–133).

الملك الفائز[52]، وأقرَّ بحلب ابن أخيه الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين" (المقريزي1997، 1: 265)، واحتفظ العادل لنفسه بمهمة الإشراف العام على جميع الدولة الأيوبية "فلما تُوفيَ ثبت كل منهم في المملكة التي أعطاه إياها أبوه" (ابن الأثير2003، 10: 393)، وهكذا وُحِّدت الدولة الأيوبية مرة أخرى كما كانت على عهد صلاح الدين الأيوبي، وبدأت تظهر على مسرح الأحداث ثلاث شخصيات أيوبية هم: الكامل بن العادل والمعظم عيسى بن العادل والأشرف موسى بن العادل.

بعد وفاة الملك العادل عام 615 هـ استقل المعظم عيسى بحكم دمشق تحت الإدارة الشكلية لأخيه الملك الكامل الذي خلَفَ والده في مصر، ثم توفي المعظم عيسى في دمشق سنة 624 هـ ليخلفه ابنه الناصر داود لمدة أقل من عامين، حيث تمكن عمّاه الكامل والأشرف من انتزاع دمشق منه عام 626 هـ مقابل التنازل له عن الكرك وما حولها وبعض المناطق في فلسطين، ومَلَكَ على دمشق الملك الأشرف حتى وفاته عام 635 هـ، ثم تملَّك على دمشق أخوه الملك الصالح إسماعيل[53] إلى أن تمكن الكامل بن العادل من السيطرة على دمشق في نفس السنة، وبعد وفاة الكامل بعد عدة أشهر، تولى ابنه الملك العادل بن الكامل[54] على مصر وابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب[55] بن الكامل على دمشق، ثم تقدم الملك الصالح نجم الدين أيوب لمحاربة أخيه العادل في مصر عام 636 هـ، فاستغل الملك الصالح إسماعيل ملك بعلبك ذلك وانقلب على الملك الصالح نجم الدين أيوب وأخذ دمشق منه عام 637 هـ، ولكن الملك الناصر داود اتفق مع الملك الصالح نجم الدين أيوب ومع بعض الأمراء المصريين ودخل الصالح نجم الدين أيوب القاهرة في نهاية شهر ذي القعدة عام 637 هـ (ابن واصل، 5: 266) واصبح ملكًا على مصر، وبقي الملك الصالح إسماعيل ملكًا على دمشق والناصر داود ملكًا على الكرك وما يتبعها، ثم تمكن الصالح نجم الدين أيوب من السيطرة على دمشق عام 643 هـ، ووُحِّدت دمشق ومصر تحت حكم الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل ابن الملك العادل، ثم توفي الصالح نجم الدين أيوب عام 647 هـ، وتولى بعده ابنه الملك المعظم غياث الدين تورانشاه[56] الذي كان مقيمًا في حصن كيفا[57] (النويري، 29: 218)، حيث وصل إلى مصر في 17 ذي القعدة من نفس العام (النويري، 29: 229) واستلم الحكم، إلا أنه قُتل في 27 محرم من عام 648 هـ (النويري، 29: 233)، وكانت مدة حكمه 71 يومًا، ثم تولت الحكم بعده جارية والده واسمها شجرة الدر[58] (النويري، 29: 234، 325)، ونظرًا للمعارضة الشديدة بتولي امرأة للحكم، فقد خلعت نفسها بعد ثلاثة أشهر من الحكم في 29 ربيع الآخر عام 648 هـ وتزوجت من الأمير عزالدين أيبك التركماني[59] (النويري، 29: 234، 325) الذي تولى الحكم في مصر وهو بداية الدولة المملوكية "وانقرضت الدولة الأيوبية من الديار المصرية" (النويري، 29: 234، 235).

ورغم انتهاء الدولة الأيوبية في مصر إلا انَّها استمرت في بلاد الشام إلى سنة 658 هـ عندما انتصر

52. الملك الفائز إبراهيم بن العادل، تحالف مع ابن المشطوب ضد الملك الكامل، مرض بين سنجار والموصل، توفي سنة 617 هـ (ابن الجوزي 2013، 22: 247).

53. الملك الصالح عماد الدين أبو الخيش إسماعيل ابن الملك العادل، حكم عدة مناطق مثل بصرى ودمشق وبعلبك، قُتل في القاهرة سنة 648 هـ (الذهبي 1996، 22: 134–137).

54. ابن الملك الكامل، قُتل سنة 646 هـ بتدبير من أخيه نجم الدين أيوب بسبب التنافس على حكم مصر (ابن الجوزي 2013، 22: 406).

55. نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل، وُلد سنة 603 هـ وتوفي سنة 647 هـ (ابن الجوزي 2013، 22: 407، 409).

56. السلطان الملك المعظم غياث الدين تورانشاه، تسلم الحكم بعد وفاة والده السلطان الملك الصالح أيوب بن الكامل بن العادل، وهو آخر ملوك الأيوبيين في مصر، قتل على يد المماليك سنة 648 هـ (الذهبي 23،1996: 193–196).

57. حصن كيفا: بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة، بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر (الحموي، 2: 306).

58. الملكة شجرة الدر أو شجر الدر بنت عبدالله جارية السلطان الصالح نجم الدين أيوب وزوجته وأم ولده خليل، استلمت الحكم بعد وفاة ابن زوجها المعظم تورانشاه بن نجم الدين أيوب لمدة ثلاثة أشهر ثم تزوجت بالأمير عزالدين أيبك التركماني وتنازلت له عن الحكم، قُتلت سنة 655 هـ (ابن تغري بردي، 6: 373–379).

59. المعز: الملك المعز عز الدنيا والدين أيبك التركماني الصالحي الجاشنكير صاحب مصر، من مماليك الصالح نجم الدين أيوب، تزوج من شجر الدر وتنازلت له عن الحكم وهو أول سلاطين المماليك في مصر، قتلته شجر الدر سنة 655 هـ (الذهبي 23،1996: 198، 199).

المماليك على التتار في معركة عين جالوت[60]، ثم توجه السلطان المظفر قطز[61] إلى دمشق في الثاني من شوال سنة 658 هـ "وملَكَ البلاد" (النويري، 29: 304)، وبقيت الكرك خارجة عن السلطة المملوكية حتى سنة 661 هـ عندما خضعت للدولة المملوكية بمصر (المقريزي1997، 1: 556).

الملك المعظّم

هو الملك المعظم شرف الدين عيسى بن العادل ابي بكر، وقد ذكر كل من (الصفدي 2010، 23: 501) و(الذهبي 1996، 22: 121) و(الدمشقي 1990، 1: 445) و(ابن الجوزي 2013، 22: 285) و(النويري، 29: 93) أنه وُلِد في القاهرة سنة 576 هـ، بينما ذكر كل من (المقريزي1997، 1: 346) و(ابن خلكان، 3: 495) أن مولده كان في سنة 578 هـ.

بدأت تظهر شخصية الملك المعظم عيسى بن الملك العادل على مسرح الأحداث بعد سيطرة الملك العزيز بن صلاح الدين وعمه العادل على دمشق سنة 592 هـ وذلك من خلال روايتين ذكرهما ابن تغري بردي، الأولى "لما كان آخر ليلة من مقام العزيز في دمشق، وكانت ليلة الاثنين تاسع شعبان، قال العادل لولده المعظم عيسى: ادخل إلى العزيز فقبّل يده واطلب منه دمشق، وكان المعظم قد راهق الحُلم، فدخل إلى ابن عمه العزيز وقبّل يده وطلب منه دمشق، فدفعها إليه واعطاه مستحقه" والرواية الثانية "وقيل: بل استناب العادل فيها ثم أعطاها للمعظم في سنة اربع وتسعين (594 هـ)" (ابن تغري بردي، 6: 126)، وبعد سيطرة العادل على الحكم في مصر سنة 596 هـ وتوحيد الدولة الأيوبية، عيّن ابنه الكامل نائبًا عنه على مصر وابنه المعظم عيسى نائبًا عنه على دمشق، وكان الملك الأفضل ابن السلطان صلاح الدين في صرخد بعد أن اخرجه العادل من مصر، وقد حاول الملك الأفضل والملك الظاهر وبعض الأمراء القيام بثورة ضد العادل سنة 597 هـ، فحاصروا دمشق وحاولوا أخذها وكان فيها الملك المعظم الذي صمد فيها (أبو الفداء، المختصر، 3: 124) وحاول الأفضل استمالة الأمير عز الدين أسامة[62] صاحب عجلون وكوكب[63] إليه "فكتب عز الدين أسامة إلى السلطان العادل، فأخذ حذره وتيقظ لنفسه، وكتب إلى ولده الملك المعظم شرف الدين عيسى يأمره بقصد صرخد ومنازلتها، وكتب إلى الأمراء يأمرهم بالاجتماع مع ولده على ذلك، ولما علم الملك الأفضل بذلك ترك صرخد وتوجه إلى أخيه الملك الظاهر في جمادى الأولى من هذه السنة، وتوجه الملك المعظم إلى بصرى على قصد محاصرة صرخد، وكتب إلى فخر الدين جهاركس[64] وميمون القصري[65] يدعوهما إلى منازلة صرخد مع الملك المعظم، فمغلطاه ولم يصلا إليه" (ابن واصل، 3: 119)، ولما طال انتظاره على بصرى عاد إلى دمشق (ابن الأثير2003، 10: 270).

ويبدو أن الملك العادل كان يعتمد على المعظم عيسى كثيرًا مما جعله يوسع حدود مملكة دمشق، ففي سنة 604 هـ "اتسعت مملكة العادل، فلما تمهدت له الأمور قسم مملكته بين أولاده... وأعطى ابنه المعظم شرف الدين عيسى من العريش إلى حمص وأدخل في ولايته بلاد الساحل الإسلامية وبلاد الغور وأرض فلسطين والقدس والكرك والشوبك وصرخد" (المقريزي 1997، 1: 284)، وقد اتسعت أملاك المعظم حتى وصلت تبوك والعُلا والمدينة المنورة

60. عين جالوت: بلدة لطيفة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين، احتلها الصليبيون وحررها صلاح الدين الأيوبي سنة 579 هـ (الحموي، 4: 200).

61. قطز: الملك المظفر سيف الدين قطز، سلطان المماليك في مصر وقائد معركة عين جالوت، قتله بعض المماليك المصريين أثناء عودته من الشام إلى مصر عند الانتصار على التتار سنة 658 هـ وهو ابن أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه (الذهبي 23،1996: 200، 201).

62. عز الدين أسامة الجبلي من كبار الأمراء في عهد صلاح الدين الأيوبي الذي أوكل إليه بناء قلعة عجلون، يُقال أنه هو من سلم بيروت للصليبيين سنة 593 هـ (أبو شامة 1947، 1: 72، 235).

63. كوكب: اسم قلعة على الجبل المطل على مدينة طبرية، حصينة رصينة، تشرف على الأردن افتتحها صلاح الدين (الحموي، 4: 561).

64. أبو المنصور جهاركس بن عبدالله الناصري الصلاحي الملقب فخر الدين، كان من كبراء الدولة الصلاحية، توفي سنة 608 هـ في دمشق ودُفن في مقبرة الصالحية (ابن خلكان، 1: 381).

65. فارس الدين ميمون القصري الصلاحي، أحد أمراء صلاح الدين الأيوبي وهو آخر من بقي من الأمراء الصلاحية، أقطعه الملك العزيز بن صلاح الدين نابلس سنة 591 هـ، توفي في حلب سنة 610 هـ (ابن الجوزي 2013، 22: 40، الذهبي 1997، 34: 391).

(أبو شامة،1947، 1: 398).

قضى المعظم سنة 608 هـ على الأمراء الصلاحية[66] (أبو الفداء، المختصر، 3: 141، 142) حيث "وصل الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن الملك العادل إلى خدمة أبيه بالديار المصرية، فاستشعر منه عز الدين أسامة، فخرج مُظهرًا أنه يتصيد وهرب في جماعة من مماليكه، فخرج الملك المعظم خلفه يريده" (ابن واصل، 3: 209)، وسبب ذلك أن قلعتي عجلون وكوكب كانتا من أملاك الأمير عز الدين أسامة، وكان هناك خلاف بين السلطان العادل وعزالدين أسامة، فغادر الأخير مصر متوجهًا إلى قلعة عجلون، فلما علم العادل بذلك طلب من ابنه الملك المعظم اللحاق به، ووصل عزالدين أسامة إلى القدس ونزل بصهيون[67] من قرى القدس" وعلم به الملك المعظم، فأرسل إليه بثياب وطعام، ولاطفه، وقال له: أنت شيخ كبير ما يصلح لك الحصون، فسلّم إليَّ كوكب وعجلون، وقال: أنا أحلف لك على مالك وملكك وجميع أسبابك وتعيش بيننا مثل الوالد، فامتنع عن ذلك وسبَّ المعظم أقبح سب، فلما يئس منه بعث به إلى الكرك، واعتقله بها واستولى على قلاعه وأمواله وذخائره، فكان قيمة ما أخذ له الف الف دينار" (ابن الجوزي 2013، 22: 191، 192؛ النويري، 29: 38؛ أبو شامة 1947، 1: 236)، وأخذ المعظم قلعتي كوكب وعجلون، وهدمت قلعة كوكب وأُبقي على قلعة عجلون، وبالقضاء على الأمير عز الدين أسامة قضي على الأمراء الصلاحية (ابن واصل، 3: 209)، وقد يكون سبب اعتقال المعظم لعز الدين أسامة ما أورده ابن واصل "وقد قيل أن جماعة من الأمراء كانوا أشاروا على أسامة بتسليم كوكب وعجلون إلى الملك المعظم ويأخذ عوضًا عنهما، فما فعل، ولو فعل لم يطرأ عليه ما طرأ من الاعتقال وأخْذ أمواله، وكانت جميع أمواله وذخائره بكوكب، فاستُصفِيت جميعها" (ابن واصل، 3: 210).

سنة 611 هـ حج المعظم ومعه جماعة من الأمراء والمقربين، منهم عز الدين أيبك، وسلك طريق العُلا وتبوك، وحج قارنًا على المذهب الحنفي، وجدد في طريقه البرك ومناهل المياه لخدمة الحجاج والقوافل (ابن الجوزي 2013، 22: 200؛ أبو شامة 1947، 1: 250؛ النويري، 29: 42) ويقول ابن الجوزي عنه "ولقد رأيت كتفه بعدما عاد وقد أكلته الشمس وانقشط، وقيّح، فقلت: ما هذا؟ فقال: ما غطيت رأسي ولا كتفي مدة ثلاثة عشر يومًا" (ابن الجوزي 2013، 22: 200)، وعاد من الحج ودخل دمشق في يوم 23 المحرم من سنة 612 هـ (أبو شامة 1947، 1: 255).

وفي سنة 613 هـ قضى المعظم على فتنة حدثت في دمشق "بين أهل الشاغور[68] والعقيبة[69] بدمشق، وحملت كل طائفة منهم السلاح، واقتتلوا، وحضر الملك المعظم من جوسق[70] الرئيس لتسكين الفتنة، وكان مقيمًا به، وقبض على جماعة من مقدمي الحارات واعتقلوا بسبب ذلك" (النويري، 29: 45، أبو شامة 1947، 1: 264).

دور المعظم في الحملة الصليبية الخامسة

عام 614 هـ وصلت أعداد كبيرة من الصليبيين من أوروبا "واجتمعوا كلهم بعكا عازمين على قصد القدس الشريف وانتزاعه من أيدي المسلمين واسترداد كل ما أُخذ لهم من البلاد الساحلية" (ابن واصل، 3: 254)، فتوجّه العادل من مصر إلى اللد[71] لقتالهم وخرج الصليبيون من عكا بأعداد كبيرة "وكان العادل على تل بيسان، فنظر، فرأى أنه لا قِبل له بهم، فتأخر، فقال المعظم: إلى أين؟ فشتمه بالعجمية، وقال له بمن أقاتل؟ أقطعتَ الشامَ مماليكك وتركت أولاد الناس الذين يرجعون إلى الأصول، وذكر كلامًا في هذا المعنى" (أبو شامة 1947، 1: 284؛ ابن الجوزي 2013، 22: 217) حيث وقف المعظم أمام والده العادل واعترض على انسحابه أمام الصليبيين اعتقادًا منه بضعفه وتخاذله، لكن العادل لما رأى كثرة عدد الصليبيين وقلّة

66. نسبة إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي.

67. صهيون: موضع معروف ببيت المقدس، فيها كنيسة صهيون (الحموي، 3: 496).

68. الشاغور: محلة بالباب الصغير من دمشق، مشهورة وهي في ظاهر المدينة (الحموي، 3: 352).

69. العقيبة: أحد أحياء دمشق، بين مقبرة الدحداح وسوق ساروجا (الشهابي 1999، 2: 134).

70. الجوسق: القصر الصغير، واستُعملت للقصر الكبير أيضًا، وتُطلق أيضًا على القسم الذي يعلو المظلة أو ساتر المؤذن في المئذنة (الشهابي 1999، 1: 147، 148).

71. اللد: قرية قرب بيت المقدس من نواحي فلسطين (الحموي، 5: 17).

عدد المسلمين "لم يرَ أن يلقاهم في الطائفة التي معه خوفًا من هزيمة تكون عليه، وكان حازمًا كثير الحذر، ففارق بيسان نحو دمشق ليقيم بالقرب منها ويرسل إلى البلاد ويجمع العساكر" (ابن الأثير2003، 10: 374)، ثم أرسل العادل ابنه المعظم "كي يمنع الفرنج من بيت المقدس، فنزل الفرنجُ قلعة الطور[72] (أبو الفداء، المختصر، 3: 147)، وجدّوا في قتال أهلها حتى تمكنوا من سورها وأشرفوا على أخذها، فقدّر الله أن بعض ملوكهم قُتل، فانصرفوا عنها إلى عكا بعدما أقاموا عليها سبعة عشر يومًا" (المقريزي 1997، 1: 308) من يوم الأربعاء 18 شعبان/614 هـ ولغاية يوم الخميس 6 رمضان من نفس السنة (أبو شامة 1947، 1: 285)، "وجاء المعظم، فصعد الطور وطيّب قلوب الناس، ثم اتفق العادل والمعظم على خراب الطور" (أبو شامة،1947، 1: 285؛ ابن الجوزي 2013، 22: 219)، ثم توجه الصليبيون إلى مصر في بداية سنة 615 هـ واستولوا على برج السلسلة[73] في دمياط (ابن الأثير2003، 10: 375) في آخر جمادى الأولى (ابن الجوزي 2013، 22: 228).

وعندما علم الملك العادل باستيلاء الصليبيين على برج السلسلة في دمياط، مرض وتوفي يوم 7 جمادى الآخرة من سنة 615 هـ وكان نازلًا بمنطقة عالقين[74] (أبو الفداء، المختصر، 3: 149)، ولم يكن أحد من أبنائه معه لحظة وفاته، وكان المعظم عيسى في نابلس، ولم يعلم بوفاته إلا أحد أصدقائه المقربين واسمه كريم الدين الخلاطي[75] وبعض الأطباء، حيث أرسل إلى الملك المعظم يطلب منه سرعة المجيء، وتوجهوا جميعًا إلى دمشق، وكُتِمَ خبر وفاة العادل عن العامة، وطلب المعظم من أكابر دمشق قَسم الولاء للعادل ومن بعده للمعظم، ثم أعلنت وفاة العادل (ابن واصل، 3: 276)، واستولى المعظم على ما كان لأبيه من الأموال والجواهر النفيسة والذخائر والعدد والأثقال والخيول، كذلك أخذ أموال أبيه التي كانت في الكرك، وقد ذكر كل من (المقريزي 1997، 1: 312) و(ابن واصل، 3: 276) و(أبو الفداء، المختصر، 3: 150) أن قيمة الأموال التي كانت في خزائن العادل حوالي سبعمائة ألف دينار مصرية، وكانت أملاك العادل موزعة بين أولاده ومنهم "الملك المعظم شرف الدين عيسى صاحب دمشق والبيت المقدس والكرك والشوبك والسواحل" (النويري، 29: 54)، وفي نفس الشهر التقى المعظم بالفرنج على القيمون[76]، فنُصِر عليهم، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأسر من الدّاوية[77] مائة فارس وأدخلهم القدس منكّسة أعلامهم" (أبو شامة 1947، 1: 299؛ ابن الجوزي 2013، 22: 228).

دور المعظم في تخريب قلعة الطور

يذكر ابن الجوزي الذي كان مشاركًا في الجيش الشامي سنة 607 هـ ان المعظم عيسى كان في نابلس، وخرج المجاهدون من دمشق إلى نابلس فالتقاهم المعظم فيها، ثم هاجم المسلمون الصليبيين وانتصروا عليهم، ولم يتمكن الصليبيون من الخروج من عكا "ثم عدنا سالمين غانمين إلى الطور المطل على الناصرة والمعظم معنا، فقال: أريد أن أبني عليه قلعة، وطلب اخاه الملك الأشرف وعساكر الشرق وحلب وشرع في عمارة الطور، وأقام العسكر تحته من ذي الحجة سنة ثمانٍ وستمائة، فكمل سوره ودار واستوى وخاف الفرنج منه، فأرسلوا إلى العادل، فصالحهم، وأعطى العساكر دستورًا، فتفرقوا، وأقام المعظم يعمر الطور إلى قبل وفاة العادل، فلا يُحصى ما غرم عليه" (ابن الجوزي 2013، 22: 173).

وهناك آراء مختلفة بين المؤرخين على تاريخ

72. الطُّور: بالضم ثم السكون وآخره راء، جبل بعينه مطل على طبرية الأردن، بينهما أربعة فراسخ على رأس بيعة واسعة محكمة البناء موثقة الأرجاء، يجتمع في كل عام بحضرتها سوق (الحموي، 4: 53).

73. برج السلسلة: برج كبير فيه سلاسل حديد تمتد عبر نهر النيل إلى سور مدينة دمياط لتمنع دخول المراكب من البحر إلى القاهرة، ولولا هذه السلاسل والبرج لكانت مراكب الصليبيين تستطيع المسير عبر النيل باتجاه القاهرة، (ابن الأثير 2003، 10: 375).

74. عالقين: قرية في جنوب سوريا.

75. الأمير كريم الدين الخلاطي، كان أديبًا، لطيفًا، خدم المعظم والأشرف والكامل، كان أميرًا للحج الشامي، توفي سنة 631 هـ، دُفن في قاسيون (ابن الجوزي 2013، 22: 334).

76. القيمون: حصن قرب الرملة من أعمال فلسطين (الحموي، 4: 481).

77. الداوية أو الديوية: قوم من الإفرنج يحبسون أنفسهم لجهاد المسلمين ويمنعون أنفسهم من النكاح وغيره، ولهم أموال وسلاح ويتعاونون القوة ويعالجون السلاح ولا طاعة عليهم لأحد، وينسب إليهم حصن الداوية بنواحي الشام (الحموي، 2: 305).

بنائها، فالنويري يذكر بناءها سنة 608 هـ (النويري، 29: 33)، وابن واصل يذكر بناءها سنة 607 هـ (ابن واصل، 3: 202)، ويذكر في موقع آخر من حوادث سنة 609 هـ "وفي هذه السنة أو التي قبلها عمّر السلطان الملك العادل قلعة على جبل الطور، وهو جبل عالٍ مطل على عكا بالقرب منها" (ابن واصل، 3: 215)، ويذكر أبو شامة أن البناء بدأ في نهاية سنة 607 هـ واستمر حتى نهاية سنة 608 هـ (أبو شامة 1947، 1: 210)، حيث "نزل العادل بعساكره حول قلعة الطور وأحضر الصناع من كل بلد واستعمل جميع أمراء العسكر في البناء ونقل الحجارة، فكان في البناء خمسمائة بناء، سوى الفعلة والنحاتين وما زال مقيمًا حتى كملت" (المقريزي 1997، 1: 295).

ولكن بعد سيطرة الصليبيين على برج السلسلة في دمياط سنة 615 هـ خاف الملك العادل من سيطرتهم على قلعة الطور القريبة من عكا، لذلك استدعى ابنه المعظم الذي كان على الساحل بعسكر الشام لتخريب قلعة الطور" وقال له: قد بنيتَ هذا الطور وهو يكون سببًا لخراب الشام، وقد سلَّم الله من كان فيه من أبطال المسلمين والسلاح والذخائر، وأرى من المصلحة خرابة ليتوفر من فيه من المسلمين والعِدد على حفظ دمياط، وأنا أعوضك، فتوقف المعظم وبقي أيامًا لا يدخل إلى العادل، فبعث اليه فأرضاه بمال ووعده في مصرٍ ببلادٍ، فأجابه، فبعث، فنقل ما كان فيه من العِدد والذخائر إلى القدس وعجلون والكرك ودمشق" (أبو شامة 1947، 1: 298؛ ابن الجوزي 2013، 22: 227؛ النويري، 29: 52)، ويعلل ابن الأثير تخريب قلعة الطور لأنها بالقرب من عكا معقل الصليبيين ويتعذر حفظها (ابن الأثير 2003، 10: 375).

دور المعظم في القضاء على مؤامرة ابن المشطوب

بعد وفاة الملك العادل ودخول الصليبيين إلى منطقة دمياط سنة 615 هـ، أرسل الكامل لأخيه المعظم الهدايا وطلب منه المساعدة ضد الصليبيين "وقال: أدركني" (أبو شامة 1947، 1: 308؛ ابن الجوزي 2013، 22: 233)، وكان من التحديات التي واجهت الملك الكامل طمع بعض الأمراء به، حيث قام أحد الأمراء الأقوياء المعروف بابن المشطوب[78]، واتفق مع جماعة من الأكراد والجند لخلع الكامل وتنصيب أخيه الفائز إبراهيم ملكًا على مصر (ابن الأثير 2003، 10: 376؛ أبو الفداء، المختصر، 3: 150) ليتمكنوا من السيطرة على حكم مصر بسبب ضعف الفائز، فاجتمعت على الكامل الفتنة الداخلية من ابن المشطوب وأعوانه من جهة والصليبيين من جهة أخرى، فانسحب الكامل إلى منطقة أشمون طناح[79] وأراد مغادرة مصر والتوجه إلى اليمن، ولكن وصل المعظم إلى أخيه الكامل بعد يومين من حركة ابن المشطوب (ابن واصل، 4: 17)، ليساعده ضد الصليبيين، وقام الملك الكامل بإعلام الملك المعظم بأمر ابن المشطوب وأعوانه، فتوجه المعظم إلى خيمة ابن المشطوب وطلب منه الخروج من مصر وأرسل معه جماعة" وأمرهم أن لا يفارقوه حتى يُخرِجوه من الديار المصرية، وينفوه إلى الشام" (ابن واصل، 4: 18)، ويذكر أبو شامة من حوادث سنة 616 هـ أن المعظم بعد وصوله إلى مصر "ركب آخر النهار، وجاء إلى خيمة ابن المشطوب، وقال: قولوا لعماد الدين يركب حتى نسير، فأخبروه، فخرج من الخيمة بغير صباغات ولحق المعظم، فأبعد به عن العسكر، وقال له: أخي الملك الأشرف قد طلبك وهو محتاج إليك، فتسير إليه الساعة، فقال: ما في رجلي صباغات ولا معي أحد من غلماني ولا قماشي، فوكَّل به جماعة وأعطاه خمسمائة دينار، وقال: كل مالك يلحقك، والله ما يضيع لك خيط واحد، وسار به الموكَّلون ورجع المعظم إلى خيمته فوقف حتى جهز خيله وغلمانه وثقله وساروا خلفه، وعاد المعظم إلى خيمته، وجاء إليه الكامل، فقبل الأرض بين يديه وخاف الفائز خوفًا عظيمًا" (أبو شامة 1947، 1: 314؛ ابن الجوزي 2013، 22: 237)، وهكذا قُضِي على فتنة كادت تطيح بسلطان مصر والتي كان من الممكن أن تسهل

78. ابن العباس أحمد ابن الأمير سيف الدين أبي الحسن علي بن أحمد بـن أبي الهيجاء بن عبدالله بـن أبي الخليل بن مرزبان الهكاري الملقب عماد الدين، كان أميرًا كبيرًا من أمراء الدولة الصلاحية (عصر صلاح الدين الأيوبي وأبنائه)، وُلد سنة 575 هـ وتوفي سنة 619 هـ (ابن خلكان، 1: 180–182).

79. بلد كبير تحت مصر بالقرب من دمياط ويقال لها أشـمون طناح وأشـمون الرمان وأشـمون جريس، أسـماء متعددة لبلدة واحدة (أبو الفداء، تقويم البلدان: 117).

للصليبيين السيطرة الكاملة على مصر وتحقيق أهدافهم في مصر ومن ثم في الشام "فانتظم أمر السلطان الملك الكامل" (أبو الفداء، المختصر، 3: 150)، ولما رتب الملك المعظم القواعد بمصر عاد إلى بلاده، "واستمر الملك الكامل إلى آخر هذه السنة محاربًا للفرنج منازلًا لهم" (ابن واصل، 4: 19؛ المقريزي 1997، 1: 315).

دور المعظم في تخريب القدس

عندما توجه المعظم إلى مصر لمساعدة أخيه الكامل ضد الصليبيين أواخر سنة 615 هـ " بلغه أن طائفة من الفرنج على عزم القدس، فاتفق الأمراء على خرابه، وقالوا: قد خلا الشام من العساكر، فلو أخذه الفرنج حكموا على الشام، وكان بالقدس أخوه العزيز عثمان وعز الدين أيبك أستاذ الدار، فكتب المعظم اليهما بخرابه، فتوقفا وقالا: نحن نحفظه، فكتب إليهما المعظم: لو أخذوه لقتلوا كل من فيه وحكموا على دمشق وبلاد الشام[80]، فألجأت الضرورة إلى خرابه، فشرعوا في السور أول يوم من المحرم سنة 616 هـ (أبو شامة 1947، 1: 313؛ ابن الجوزي 2013، 22: 236)، وأصدر المعظم عيسى تعليماته لهما بهدم أسوار القدس "خوفًا من تملّك الفرنج... وهجّ الناس منه على وجوههم، وكان يومئذٍ أحصن ما يكون وأعمره، وذاك لأنه كان في نجدة أخيه على دمياط" (الذهبي 1996، 22: 234).

ويصف ابن واصل هذه الحادثة "لما اشتدت مضايقة الفرنج لثغر دمياط وأشرفت على الأخذ، خاف الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن الملك العادل صاحب دمشق أن تصل من البحر أمم عظيمة من الفرنج إذا سمعوا بقوة اصحابهم وتمكنهم من الديار المصرية والملك الكامل مشغول بمحاربة من بديار مصر من الفرنج، فيقصدون البيت المقدس وهو عامر فيملكونه، ولا يمكن بعد ذلك استنقاذه منهم، فتقدم بخراب أبراج البيت المقدس وأسواره، وكانت قد صارت في غاية العظمة والوثاقة، فإنه من حين استنقذه الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله من الفرنج ما زالت فيه العمارة قائمة، فكان كل برج من أبراجه نظير قلعة، فجمع له الحجارين والنقابين، وعلّق أسواره وأبراجه فهدمها ما خلا برج داود عليه السلام فإنه أبقاه، ولما هُدمت أسواره انتقل عنه أكثر المقيمين به، وكان فيه خلق لا يحصون، فلم يبقَ فيه إلا القليل من الناس، ثم تقدم الملك المعظم بنقل ما كان فيه من الزرد خاناه[81] وآلات القتال وغير ذلك، فعظم على المسلمين خرابه وتأسفوا عليه غاية الأسف" (ابن واصل، 4: 32)، ويبرر أبو شامة ذلك "خوفًا من استيلاء الفرنج عليه" (أبو شامة 1947، 1: 313)، ويؤكد ابن العماد ذلك "وفي أول العام خرَّب الملك المعظم سور بيت المقدس خوفًا وعجزًا من الفرنج أن تملكه، فشرعوا في هدم السور في أول يوم من المحرّم... وذم الناس الملك المعظم" (ابن العماد 1991، 7: 118)، كذلك يقدم (العمري، 27: 145) و(أبو الفداء، المختصر، 3: 152) تبريرًا لهدم أسوار القدس بأن الملك المعظم لما رأى قوة الصليبيين وتغلّبهم على دمياط خاف أن يقصدوا القدس، ولعلمه أنه لا يقدر على منعهم.

ونتج عن تخريب القدس أنه "وقع في البلد ضجّة عظيمة مثل يوم القيامة، وخرج الناس أجمعين، حتى البنات المخدَّرات والعجائز والشيوخ وغيرهم، إلى الصخرة والأقصى، فقطّعوا شعورهم ومزقوا ثيابهم، وخرجوا على وجوههم وتركوا أموالهم، وامتلأت بهم الطرقات، فمنهم من توجه إلى الديار المصرية ومنهم من توجه إلى الكرك، وبعضهم إلى دمشق، وصار البنات المخدَّرات يمزقن ثيابهن ويلففنها على أرجلهن من الحَفَا، ومات خلق كثير من الجوع والعطش، ونُهب ما كان لهم بالقدس، حتى بيع قنطار الزيت بالقدس بعشرة دراهم ورطل النحاس بنصف درهم" (أبو شامة 1947، 1: 313؛ ابن الجوزي 2013، 22: 237؛ النويري، 29: 60)، "وكانت نوبة لم يكن في الإسلام مثلها" (أبو شامة 1947، المذيل، 1: 313).

ولا نستغرب تخريب المعظم لأسوار القدس خوفًا من استيلاء الصليبيين عليها والاستفادة منها وعدم قدرة المسلمين على حمايتها، فقد سبقه صلاح الدين الأيوبي في تخريب بعض المواقع الأخرى، ففي يوم الأربعاء الثالث من رمضان سنة 587 هـ أمر صلاح الدين الأيوبي بتخريب اللد وقلعة الرملة (ابن شداد

80. بلاد الإسلام عند (ابن الجوزي 2013، 22: 236).

81. الزردخان: مـن زرد العربية، وخانة بمعنى الدار أو البيت، أي دار الـزرد، وهو مصطلح يطلق علـى المكان أو المخزن الذي تُحفظ فيه الأسلحة (حلاق وصباغ 1999: 106).

1994: 283)، كذلك يذكر ابن شداد عن خراب عسقلان أن صلاح الدين "استخار الله تعالى، فأوقع الله في نفسه أن المصلحة في خرابها لعجز المسلمين عن حفظها عن الفرنج، فاستحضر الوالي بها قيصير وهو من كبار مماليكه وذوي الآراء منهم، فأمره أن يضع فيها المعول، وذلك في سحرة ليلة الخميس التاسع عشر من شعبان سنة سبع وثمانين وخمسمائة، ولقد رأيته وقد اجتاز بالسوق والوطاق بنفسه يستنفر الناس للخراب" (ابن شداد 1994: 280)، كذلك أمر بتخريب قلعة النطرون في يوم السبت الثالث عشر من رمضان سنة 587 هـ "وكانت قلعة منيعة حصينة من القلاع المذكورة فشرع في خرابه" (ابن شداد 1994: 286)، كذلك فعل المعظم عيسى، فبعد وفاة الملك العادل سنة 615 هـ واستقرار الحكم له في دمشق، أمر بتخريب حصون بانياس وتبنين "وأظهر أنه ما أخرب بانياس وتبنين إلا خوفًا من استيلاء الفرنج عليهما" (أبو شامة 1947، 1: 308؛ النويري، 29: 56).

دور المعظم في تحرير دمياط من الصليبيين

عندما سيطر الصليبيون على مدينة دمياط كاملة في 10 من رمضان سنة 616 هـ (ابن واصل، 4: 33) بكى الكامل والمعظم، وتراجع المسلمون إلى الخلف (ابن الجوزي 2013، 22: 238) وطلب الكامل من أخيه المعظم التوجه إلى الشام ومشاغلة الصليبيين فيها وإرسال الجيوش من الشرق إلى مصر (ابن الجوزي 2013، 22: 238؛ النويري، 29: 61)، وتوجه المعظم إلى الشام وفي طريقه حاصر قيسارية[82] وفتحها ثم هدمها (أبو شامة 1947، 1: 316؛ ابن الجوزي 2013، 22: 238؛ النويري، 29: 62)، وحاول الصليبيون التوجه جنوبًا لاحتلال القاهرة، وظنوا أنهم إذا احتلوا مصر فإنه يمكنهم احتلال القدس، لذلك قام الكامل ببناء مدينة المنصورة على مفترق نهر النيل وأنزل عساكره فيها (ابن واصل، 4: 33)، وبقي مرابطًا فيها إلى سنة 618 هـ.

تمكن الملك المعظم عام 618 هـ من جمع كلمة الملوك الأيوبيين لنصرة الملك الكامل، حيث توجه إلى البلاد الشرقية لجمع العساكر لمواجهة الصليبيين في مصر، واجتمع بأخيه الملك الأشرف "وأشار عليه بأن يسرع التوجه إلى مصر في عساكره ويستصحب معه ملوك أهل البيت وعساكرهم، فأجابه الملك الأشرف إلى ذلك" (ابن واصل، 4: 92)، وكان المعظم من أحرص ملوك الأيوبيين على تحرير مصر من الصليبيين، وذلك بسبب قربهم من أملاكه، فإذا احتلوا مصر تمكنوا من احتلال القدس وبلاد الشام، وتوجهت القوات الإسلامية إلى مصر في بداية شهر جمادى الآخرة سنة 618 هـ (أبو شامة 1947، 1: 344؛ ابن الجوزي 2013، 22: 258؛ النويري، 29: 74)، ووصل المعظم والأشرف إلى الكامل في المنصورة في الثالث من رجب (أبو شامة 1947، 1: 345؛ النويري، 29: 74)، وكان الكامل قد انتصر على الصليبيين باستخدام مياه النيل حتى اضطروا لطلب الصلح، وعقدت هدنة بين الطرفين، وهكذا نجح المعظم بتوحيد جهود الملوك الأيوبيين ضد الصليبيين في مصر وطردهم منها "وكانت مدة مقام الفرنج بالديار المصرية ثلاث سنين وشهورًا" (ابن واصل، 4: 98)، ثم عاد المعظم إلى دمشق "وتأخر الملك الأشرف عند السلطان الملك الكامل، وتصافيا، وزال ما عند كل منهما من الآخر، واتفقا على الملك المعظم صاحب الشام" (أبو شامة 1947، 1: 346؛ النويري، 29: 76)، ومن هنا تبدأ مرحلة جديدة في حياة الملك المعظم عيسى غلبت عليها المنازعات والمؤامرات بين الاخوة، الكامل والمعظم والأشرف.

الخلافات بين المعظم والكامل والأشرف

تميزت الفترة بعد وفاة الملك العادل سنة 615 هـ إلى سنة 618 هـ –عندما حُرِّرت مصر من الصليبيين– بأنها مرحلة انسجام وتعاون بين الملوك الأيوبيين، وخصوصًا بين الملك الكامل والملك المعظم بسبب الخطر الذي كان يهدد الطرفين، فقد تمكن المعظم من توحيد كلمة بني أيوب لمساعدة اخيهم الأكبر الكامل في مصر والذي كانت تتعرض بلاده للغزو الصليبي وما رافقه من فتنة داخلية كادت أن تعصف بمُلك الأيوبيين في مصر، حيث كان للملك المعظم عيسى دور كبير في تثبيت الملك الكامل في مصر،

82. قيسارية: مدينة بساحل بحر الشام وتُعد من أعمال فلسطين وكانت من أمهات المدن العظام (أبو الفداء، تقويم البلدان: 239).

لكن حالة الانسجام والتوافق بين الملوك الأيوبيين بدأت تتحول إلى حالة من التنافس والتنافر والتآمر بعد تحرير دمياط سنة 618 هـ، ففي السنة التالية توجه الملك الأشرف إلى مصر لخدمة السلطان الكامل وبقي عنده إلى نهاية السنة (ابن واصل، 4: 116)، وقد مرّ الأشرف بمدينة دمشق ولم يصطحب المعظم معه إلى مصر (ابن الأثير 2003، 10: 468)، مما أثار شكوك الملك المعظم من اتفاق أخويه ضده، لذلك أرسل محتسبَ دمشق واسمه الصدر البكري[83] رسولًا من قبله إلى جلال الدين خوارزم شاه[84] "ليتفق معه لما بلغه اتفاق أخويه الكامل والأشرف عليه، فاجتمع البكري بالخوارزمي وقرر معه الأمور وجعله سندًا له" (أبو شامة 1947، 1: 349؛ ابن الجوزي 2013، 22: 258)، وفي نفس السنة توجه الملك المعظم إلى حماة (أبو الفداء، المختصر، 3: 163) والسبب في ذلك أنه عندما توفي الملك المنصور ملك حماة سنة 617 هـ كان له ولدان هما الناصر قلج أرسلان وكان بخدمة خاله الملك المعظم في الساحل ضد الصليبيين والآخر هو المظفر تقي الدين محمود وهو الأكبر وولي العهد، وكان بخدمة خاله الملك الكامل في مصر في مواجهة الصليبيين أيضًا، وبعد وفاة المنصور كتب أمراء وكبار حماة إلى الناصر للقدوم إليها وتملُّكها قبل اخيه، وقد سمح الملك المعظم للناصر قلج أرسلان بالتوجه إلى حماة واستلام الحكم فيها بشرط أن يدفع الناصرُ للمعظم مبلغ 400 ألف درهم كل سنة (أبو الفداء، المختصر، 3: 157)، ولكن الناصر لم يفِ بالاتفاق، مما جعل المعظم يتوجه بعساكره إلى حماة، وكان الناصر في رحلة صيد، وعندما علم بذلك أسرع إليها ودخلها قبل وصول المعظم وتحصن بقلعتها وأمر بغلق الأبواب أمام المعظم وعساكره، فحاصرها المعظم وبدأ القتال قليلًا، ثم انسحب المعظم وتوجه إلى سلميَة فنزل فيها وأخذ ما فيها من المحاصيل وعين واليًا عليها ثم توجه إلى معرّة النعمان (ابن واصل، 4: 117، 118) "واستولى الملك المعظم على المعرَّة وما فيها من الحواصل وولّى فيها واليًا من قبله" (ابن واصل، 4: 120)، ثم رحل المعظم من المعرَّة متوجهًا إلى سلميَة "وأقام بها إلى أن خرجت هذه السنة وهو على قصد منازلة حماة وانتزاعها من الملك الناصر صاحبها" (ابن واصل، 4: 120)، وبقي المعظم في سلميَة ومعرة النعمان من أجل الاستيلاء على حماة، حيث طلب من العرب في هذه المناطق عدم تزويد حماة بالمحاصيل الزراعية والمواد الغذائية "ومنع من يقصدها من الجند لإنجاد صاحبها الملك الناصر وجعل طريق القوافل على سلميَة" (ابن واصل، 4: 126؛ العمري، 27: 158).

وعندما علم الكامل والأشرف (الذي كان بضيافة الكامل في مصر في بداية سنة 620 هـ) خافا إذا انتزع المعظم عيسى حماة من الناصر فأنه سيتوسع في مناطق أخرى، لذلك طلبا منه مغادرة حماة والعودة إلى دمشق، ثم جرت مراسلات بين المعظم والناصر "فتقررت قواعد الصلح بين الملك المعظم وابن أخته الملك الناصر، ورحل الملك المعظم عن سلميَة مغضبًا محنقًا على أخويه، وكان ذلك ابتداء الوحشة بينه وبينهما، وكانت أطماعه قد تعلقت بالاستيلاء على حماة وبلادها وإضافتها إلى ممالكه" (ابن واصل، 4: 128؛ العمري، 27: 159)، وعاد المعظم إلى دمشق، وغادر الأشرف مصر متوجهًا إلى بلاده مرورًا بدمشق، ورفض النزول في قلعة دمشق حسب رغبة المعظم، ونزل في جوسق والده، ثم غادر دمشق متوجهًا إلى حرّان[85] دون علم الملك المعظم مما زاد شكوك المعظم بأخويه الأشرف والكامل (أبو شامة 1947، 1: 354؛ ابن الجوزي 2013، 22: 262؛ النويري، 29: 82)، لكن ابن واصل يذكر أن الملك المعظم التقى بالملك الأشرف أثناء عودته من مصر وأنزله في قلعة دمشق لمدة ثلاثة أيام (ابن واصل، 4: 129)، ويذكر ابن الجوزي أن المعظم قال له عندما

83. الشيخ الإمام المحدّث صدر الدين أبو علي الحسن بن محمد ابن الشيخ... ابن محمد بن أبي بكر القرشي التيمي البكري النيسابوري الدمشقي الصوفي، وُلد في دمشق سنة 574 هـ، تولى منصب محتسب دمشق، ثم انتقل إلى مصر وتوفي فيها سنة 656 هـ (الذهبي 1996، 23: 326–328).

84. السلطان جلال الدين منكوبري ابن السلطان علاء الدين محمد ابن السلطان خوارزم شاه تكش بن خوارزم شاه أرسلان سلطان الدولة الخوارزمية، تسلم الحكم بعد وفاة والده الذي فرّ من التتار سنة 617 هـ، واستأنف الحرب ضد التتار وانتصر عليهم في بعض المعارك ولكنه انهزم أمامهم، قتله أحد الأكراد سنة 628 هـ (الذهبي 1996، 22: 326–329).

85. حرّان: مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور، وهي قصبة ديار مضر، بينها وبين الرها يوم، وبينها وبين الرقة يومان، على طريق الموصل والشام والروم (الحموي، 2: 271).

وصل الأشرف إلى حرّان " قال لي المعظم: أما عندك خبر ما قد شنّع عليّ أخي؟ إنني أردت أن أمسكه، فقد كان في الجوسق، لو أردت أن أمسكه أمسكته، والله ما خطر هذا أبدًا" (ابن الجوزي 2013، 22: 263).

وفي عام 621 هـ توجه الملك الأشرف إلى أخيه الملك الكامل، وكان لهم أخ يتبع الملك الأشرف وهو الملك المظفر شهاب الدين غازي، وقد ولّاه الأشرف على بلاد خلاط وميافارقين وحاني[86] وجبل جور[87]، حتى أن الأشرف جعله ولي عهده لأنه لم يكن له أبناء ذكور، وقد استغل الملك المعظم وجود الملك الأشرف في مصر فقام بمراسلة أخيه المظفر شهاب الدين غازي ومظفر الدين بن زين الدين [88] صاحب إربل[89] من أجل الخروج على الملك الأشرف وأخذ بلاده منه (أبو الفداء، المختصر، 3: 166)، ورحل الملك المعظم بعساكره من دمشق بقصد التوجه إلى البلاد الشرقية، ولكن الملك الكامل بعث رسالة تهديد إليه يحذره إذا خرج من دمشق فإنه سيتوجه إليها ويأخذها منه، فخاف المعظم وعاد إلى دمشق (ابن واصل، 4: 137–139؛ ابن الأثير 2003، 10: 440–441؛ العمري، 27: 161).

ونظرًا للخلاف بين الأخوة الكامل والأشرف من جهة والمعظم من جهة أخرى، وبعد فشل تمرُّد المظفر شهاب الدين غازي –المدعوم من الملك المعظم– على أخيه الملك الأشرف فقد بحث المعظم عن حليف قوي ضد أخويه، لذلك "اتفق المعظم ومظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل مع جلال الدين خوارزم شاه على الملك الأشرف، وبعث المعظم ولده الناصر داود إلى ابن زين الدين رهينة، وعبر الفرات إلى الحديثة[90] ومضى إلى إربل" (أبو شامة 1947، 1: 373) "وفعل الملك المعظم ذلك معاندة لأخويه الملك الكامل والملك الأشرف" (ابن واصل، 4: 146)، ورغم هذا الاتفاق إلا أن المعظم رفض سنة 622 هـ مساعدة الخوارزم شاه ضد الخليفة العباسي في بغداد، حيث طلب منه مساعدته ضد الخليفة العباسي إلا أن المعظم كتب إليه رسالة يرفض فيها الخروج على الخليفة قال فيها "أنا معك على كل أحد إلا الخليفة فإنه إمام المسلمين" (ابن الجوزي 2013، 22: 273؛ أبو شامة 1947، 1: 377)، وهذا يدل على أن المعظم عيسى يعترف بالولاء للخليفة العباسي في بغداد، ورغم هذا الولاء فإن المعظم رفض سنة 623 هـ رسالة الخليفة التي يطلب منه فيها نقض التحالف مع جلال الدين خوارزم شاه باعتباره خارجًا على الخلافة وأن يجري الصلح بين الأخوة المعظم والكامل والأشرف، فكان رد المعظم أن تحالفه مع جلال الدين –الذي كان يحتل خلاط من أملاك الأشرف– هو لمنع اتفاق أخويه ضده، حيث رد المعظم على رسالة الخليفة "إن قصدني الأشرف منعه الخوارزمي وإن قصدني الكامل كان فيَّ له" (أبو شامة 1947، 1: 386؛ ابن الجوزي 2013، 22: 279)، وقد بلغ من هذا التحالف "أن المعظم يلبس خلعة[91] الخوارزميّ ويركب فرسه، وإذا جلسوا على تلك الحال يحلف المعظم برأس الخوارزم شاه" (أبو شامة 1947، 1: 386؛ ابن الجوزي 2013، 22: 279)، ثم توجه الملك الأشرف إلى دمشق وأقام عند أخيه المعظم وطلب منه التوسط عند جلال الدين خوارزم شاه للخروج من خلاط، فوافق جلال الدين وانسحب منها (ابن الجوزي 2013، 22: 279).

ونتج عن هذه الخلافات والصراعات بين ملوك البيت الأيوبي أن انقسموا إلى فريقين، فريق يؤيد الملك المعظم وفريق يؤيد الملك الكامل، وبالتالي صار المعظم عيسى أحد جناحي الدولة الأيوبية و"لم يكن مع الملك المعظم من أهل بيته إلا الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه بن عز الدين فرخشاه صاحب بعلبك والملك العزيز والملك الصالح أبناء الملك العادل، وكان الملك الصالح عماد الدين إسماعيل

86. حاني: اسم مدينة معروفة بديار بكر، فيها معدن الحديد، ومنها يُجلب إلى سائر البلاد (الحموي، 2: 240).

87. جبل جور: اسم لكورة كبيرة متصلة بديار بكر من نواحي أرمينية (الحموي، 2: 119).

88. أبو سعيد كوكبوري بن أبي الحسن علي بن بكتكين بن محمد الملك المعظم مظفر الدين صاحب إربل، وُلد سنة 549 هـ وتوفي سنة 630 هـ (ابن خلكان، 4: 113–121).

89. إربل: قلعة حصينة ومدينة كبيرة في فضاء من الأرض واسع بسيط، تُعد من أعمال الموصل (الحموي، 1: 167).

90. حديثة الفرات: تعرف بحديثة النورة وهي على فراسخ من الأنبار وبها قلعة حصينة في وسط الفرات والماء يحيط بها (الحموي، 2: 266).

91. الخلعة السلطانية: حلّة من حلل السلطان، يكف عن لبسها ويخلعها على من يريد تكريمه، وكان يُضاف إليها أحيانًا سيف محلّى بالذهب وجواد كامل العدة (حلاق وصباغ 1999: 84).

صاحب بصرى والسواد[92]، وكان هذان الأخَوان ملازمين خدمة أخيهما الملك المعظم لا يفارقانه" (ابن واصل، 4: 176)، لذلك قرر المعظم ضمَّ حمص وحماة إلى املاكه وخرج بجيشه سنة 623 هـ متوجهًا إلى حمص، وجرت الحرب بين الملك المعظم وعرب دمشق من جهة وجيش حمص وجيش حلب من جهة أخرى (ابن واصل، 4: 177– 178) "وأخرب الملك المعظم قرايا حمص ومزارعها وامتدت غاراته إلى سلميَة وهي يومئذٍ للملك المظفر بن المنصور وهو عند خاله الملك الكامل بمصر، وطال مقام الملك المعظم على حمص، ولم ينل من قلعتها ومدينتها غرضًا" (ابن واصل، 4: 179)، ثم عاد الملك المعظم إلى دمشق في شهر رمضان من سنة 623 هـ، بسبب كثرة ما مات من خيله وخيل عسكره (العمري، 27: 164؛ أبو الفداء، المختصر، 3: 169).

من هنا يتبين اتساع الخلاف بين الملوك الأيوبيين وخصوصًا بين المعظم والكامل، لذلك حاول الملك الأشرف إعادة الاتفاق بينهم خوفًا من انهيار الدولة الأيوبية، وتوجه إلى دمشق لغاية الصلح بينهما "قطعًا لمادة الشر، وزُينت دمشق لقدوم الملك الأشرف" (ابن العديم 1968، 3: 198)، واستطاع المعظم أن يسيطر على الأشرف حتى صار " كالتبع للملك المعظم، لا يمكنه أن ينفرد عنه بأمر ولا يتجاسر –لكونه في قبضته وكالأسير عنده– على مخالفته في قليل ولا كثير" (ابن واصل، 4: 180)، ولم تكن هذه العلاقة ودية بين الملكين، حيث كان كل منهما يُظهر المحبة للآخر بينما يبطن عكس ذلك في الباطن "والملك المعظم يتلوَّن معه تلوُّن الحرباء" (ابن واصل، 4: 204)، وتمكن المعظم من إجبار الأشرف على حلف اليمين أنه يساعده ضد ملك مصر وملك حمص وملك حماة، وبعد اليمين سمح المعظم لأخيه الأشرف بمغادرة دمشق والعودة إلى بلاده في شهر جمادى الآخرة من سنة 624 هـ (ابن العديم 1968، 3: 201)، وكانت فترة بقاء الأشرف في دمشق حوالي عشرة أشهر، ثم تراجع الأشرف عن يمينه بحجة أنه أقسم مكرهًا، وقد ندم المعظم على سماحه للأشرف مغادرة دمشق، وكرد فعل على ذلك فإنه أرسل العرب إلى حماة وحمص فعاثوا فيهما (ابن واصل، 4: 205،206؛ ابن العديم 1968، 3: 201؛ أبو الفداء، المختصر، 3: 171).

ونتج عن بقاء الأشرف عند المعظم أن خاف الكامل من اتفاقهما ضده، وساعد على هذا الخوف التحالف الذي عقده الملك المعظم مع السلطان جلال الدين خوارزم شاه لمساعدته ضد أخيه الملك الكامل، لذلك بحث الكامل عن تحالف مضاد، فاتفق مع الإمبراطور فريدريك الثاني[93] في سنة 624 هـ ووعده بالتنازل له عن بعض المناطق الساحلية "ليشغل سر أخيه المعظم" (المقريزي 1997، 1: 345)، ثم أرسل الإمبراطور رسولًا إلى الملك المعظم يطلب منه التنازل عن البلاد التي فتحها صلاح الدين الأيوبي وذلك حسب الاتفاق بين الملك الكامل والإمبراطور، وكانت هذه الأراضي تابعة للملك المعظم، إلا ان الملك المعظم رفض التنازل عن هذه البلاد" فأغلظ له، وقال: قل لصاحبك ما أنا مثل الغير، ماله عندي سوى السيف" (أبو شامة 1947، 1: 396؛ ابن الجوزي 2013، 22: 284؛ النويري، ج 29: 91)، وخرج الكامل من مصر متوجهًا إلى دمشق ونزل بلبيس[94] في شهر رمضان سنة 624 هـ، فأرسل إليه المعظم برسالة في السر يهدده من الاقتراب منه قائلًا له "إني نذرت لله تعالى أن كل مرحلة ترحلها لقصدي أتصدق بألف دينار، فإن جميع عسكرك معي وكتبهم عندي وأنا آخذك بعسكرك" (المقريزي، 1: 345؛ النويري، 29: 92)، ثم كتب له رسالة بالعلن يعترف بأنه يتبع له ويذكِّره بوقوفه معه ضد الفرنج في مصر سنة 618 هـ، ورجع الكامل إلى القاهرة وقبض على بعض من مماليك أبيه الملك العادل بسبب مكاتبتهم لأخيه الملك المعظم (المقريزي 1997، 1: 345؛ النويري، 29: 92).

وفاة المعظم

أجمع المؤرخون مثل (ابن الأثير2003، 10: 473) و(ابن العميد: 15) و(ابن الجوزي 2013، 22: 290) و(ابن واصل، 4: 208) و(المقريزي

92. السواد: نواحٍ قرب البلقاء، سُميت بذلك لسواد حجارتها (الحموي، 3: 309).

93. ملك الألمان ولقبه إنبرور وقيل معناه ملك الأمراء (ابن الأثير 2003، 10: 478).

94. بلبيس: مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام (الحموي، 1: 567).

1997، 1: 346) و(الصفدي 2010، 23: 501) و(الذهبي 1993، 1: 420، 1991: 328، 1996، 22: 12) وعبدالقادر (الدمشقي 1990، 1: 445) و(ابن كثير1988، 13: 121) أن وفاة المعظم عيسى كانت يوم الجمعة في دمشق في نهاية شهر ذي القعدة/ أول ذي الحجة سنة 624 هـ بمرض الدوزنطاريا عن عمر 47 سنة[95]، وقد اختلف المؤرخون في المدة التي قضاها المعظم عيسى ملكًا مستقلًا على دمشق بعد وفاة الملك العادل، حيث ذكر ابن الأثير أن هذه المدة هي عشر سنين وخمسة أشهر وثلاثة وعشرين يومًا (ابن الأثير 2003، 10: 474)، بينما ذكر ابن العميد أن هذه المدة ثمان سنين وستة أشهر واثنان وعشرون يومًا (ابن العميد: 15)، ويرى (ابن واصل، 4: 208) و(العمري، 27: 167) و(أبو الفداء، المختصر، 3: 171) أن المدة تسع سنين وشهور، ويذكر ابن الجوزي حادث تسميم المعظم دون تأكيدها بشكل قطعي "مرض في نصف شوال... واشتد مرضه وأصابه ذرب عظيم بحيث أنه رمى قطعة من كبده ومصرانًا وكثرت الأقوال أنه سُقيَ السُّم واتُّهم به جماعة وربك الخبير..." (ابن الجوزي 2013، 22: 289)، وبذلك أُسدل الستار على شخصية أيوبية جمعت صفات القيادة والسياسة والدهاء والعلم، وربما كان من الممكن أن يُعيد توحيد الدولة الأيوبية تحت قيادته كما فعل قبله عمه صلاح الدين الأيوبي وأبوه الملك العادل.

كان للمعظم عدد من الأولاد، منهم من مات في حياته، وعاش بعده أربعة، أحدهم توفي صغيرًا بعد وفاة المعظم بفترة قليلة، وبقي من الذكور ثلاثة هم: الناصر داود، وُلد عام 603 هـ، واستلم الحكم بعد وفاة والده وكان عمره 21 سنة (ابن واصل، 4: 219)، وتوفي سنة 656 هـ (الذهبي، سير اعلام النبلاء 1996، 23: 376–381) والمغيث شهاب الدين عبدالعزيز توفي سنة 649 هـ في البلاد الشرقية والقاهر بهاء الدين عبد الملك توفي في دمشق في بداية سنة 676 هـ، وله تسع بنات وقيل إحدى عشرة (ابن الجوزي 2013، 22: 294).

95. 49 سنة عند (أبو الفداء، المختصر، 3: 171).

أعمال المعظم العمرانية

للمعظم عيسى كثير من الأعمال العمرانية، منها:

1– كانت الكرك والشوبك بأيدي الصليبيين، وبعد الفتح أعطى صلاح الدين الأيوبي الشوبك والكرك إلى أخيه العادل الذي أعطاهما لابنه المعظم (القلقشندي 1914، 4:157)، وعام 608 هـ حدث زلزال في مصر والكرك والشوبك ومات خلق كثير تحت الهدم، وسقطت عدة أبراج من قلعة الشوبك (المقريزي 1997، 1: 294)، وقام المعظم بتجميل الشوبك وتحصينها وجلب إليها "غرائب الأشجار حتى تركها تظاهي دمشق في بساتينها وتدفق أنهارها وتزيد بطيب مائها" (القلقشندي 1914، 4: 157).

2– ذكر ابن الجوزي بعض أعمال المعظم "بنى مدرسة بقاسيون ودفن فيها والدته وأخاه المغيث، ومدرسة القدس، ودار المضيف، واعتنى بأرض الحجاز، فبنى حمامين بمعان للرجال والنساء، وأقام لهم الضيافة عند رواحهم إلى مكة ومجيئهم وأباحهم الحمامين، وذرع طريق الحجاز من باب الجابية[96] إلى مكة، وحفر البرك والمصانع، وأوقف على ذلك ضياعًا من السَّاحل وعلى المدارس، وكان قد حج سنة إحدى عشرة على طريق تبوك والعُلا ففعل ما ذكرناه في طريقه، وكانت العُلا لبني صخر وهي قلعة، فأخذها منهم ورتب فيها جماعة، وعمر المساجد عند جعفر الطيار[97] رضي الله عنه وأقام الضيافات للزوار، وبنى سور دمشق، والطارمة[98] التي على باب الحديد، والطيَّارة التي عند باب السّرّ[99] المشرفة

96. باب الجابية: الجابية قرية من أعمال دمشق ثم من عمل الجيدور من ناحية الجولان، قرب مرج الصفّر في شمالي حوران، وباب جابية دمشق منسوب إلى هذا الموضع، ويقال لها جابية الجولان أيضًا (الحموي، 2: 106).

97. هي مؤتة التي استشهد فيها جعفر بن أبي طالب ابن عم الرسول عليه الصلاة والسلام سنة 8 للهجرة وفيها قبره (الحموي، 5: 255).

98. الطارمة: غرفة عالية محاطة بشبابيك كثيرة تطل على ماحولها، ولغة أهل دمشق "الطيّارة" و"الطرمة"، وطارمة باب الحديد كانت على باب الحديد بقلعة دمشق (الشهابي 1999، 2: 79).

99. باب السرّ: باب قلعة دمشق الغربي الحالي، سُمِّي باب السرّ لأن أهل القلعة كانوا يدخلون ويخرجون منه دون أن يدري بهم سكان المدينة داخل السور (الشهابي 1999، 1: 25).

على دار الطُّعم العتيقة، وبنى الخان على باب الجابية، وبنى الدار والقصر والقيسارية[100]، وغير ذلك" (ابن الجوزي 2013، 22: 292؛ الصفدي 2010، 23: 502).

3- بنى قلعة السلط (الصلت): "وبها قلعة بناها المعظم عيسى بن العادل" (القلقشندي 1914، 4: 106)، ويذكر العمري بأن سبب بناء الملك المعظم لهذه القلعة "أنه عبرت له جوار هناك، فخرج عليهن طائفة تُعرف ببني دحمان من أهل قرية كفر يهودا فسبوهنَّ وأخذوا جماعة منهنَّ، فبناها على قنة (قمة) جبل يُعرف برأس الأمير" (العمري، 3: 362).

4- بنى المدرسة المعظَّمية: "بالصالحية[101] بسفح قاسيون[102] الغربي جوار المدرسة العزيزية، قال الغزي الحلبي: "المدرسة المعظمية والمدرسة العزيزية مجاورة لها، أُنشئت المدرسة المعظمية في سنة إحدى وعشرين وستمائة" (الدمشقي 1999، 1: 445).

5- بنى الفندق الكبير سنة 611 هـ المنسوب إليه بأرض عاتكة[103] قبلي القنوات ظاهر باب الجابية (أبو شامة 1947، 1: 252؛ ابن كثير1988، 13: 67).

6- بنى في الحرم الشريف قبة للمذهب الحنفي لأنه كان حنفي المذهب بعكس جميع ملوك البيت الأيوبي الذين كانوا على المذهب الشافعي "ووقف عليها وقفًا جليلًا على أن يشتغل في تلك القبّة بالقراءات السبع، وشرط أن لا يُصرف من وقفها شيء إلا للحنفية فقط" (ابن واصل، 4: 211).

7- أقام الأبنية على طريق الحاج "وكان قد عزم على أن يبني في كل منزلة من طريق الحاج" (الصفدي 2010، 23: 502)، لذلك "سيّر في سنة اثنتين وعشرين وستمائة –وهي السنة التي حججت فيها ثانية– من مسح الأرض من باب الجابية إلى جبل عرفات وكتبها له منزلة منزلة، وسهَّل في طريق الحج مواضع كانت وعرة كثنية الصوان، وكثَّر المير لهم في أرض الكرك والشوبك وتبوك والعُلا والمدينة –على ساكنها السلام– فكان الحجاج يجدون بذلك رفقًا" (أبو شامة 1947، 1: 398).

8- بنى في دمشق المدرسة الكبيرة الشافعية المعروفة بالمدرسة العادلية، ودفن فيها والده السلطان العادل (ابن واصل، 4: 219، 220).

9- بنى بركة المعظّم على طريق الحاج الشامي، والتي لا تزال موجودة حاليًا ضمن أراضي المملكة العربية السعودية على الطريق المعبد الحديث وتحمل نفس الاسم (المعظم)، قال عنها الجزيري "ومن أشهرها بركة المعظم، أمر ببنائها الملك المعظم عيسى بن العادل" (الجزيري 2002، 2: 45)، "وهي بركة عظيمة تملؤها السيول ماءً طيبًا، ثم يرحل إلى الأقيرع... ثم يرحل إلى أبيار الحجر ومدائن صالح" (الجزيري 2002، 2: 67)، وزارها ابن بطوطة في رحلته مع قافلة الحج الشامي سنة 726 هـ وقال عنها "وهي ضخمة، نسبتها إلى الملك المعظم من أولاد أيوب، ويجتمع بها ماء المطر في بعض السنين" (ابن بطوطة 1987، 1: 127)، وقال عنها الخياري أثناء مروره بها متوجهًا إلى إسطنبول سنة 1080هـ "بركة مربعة متسعة النواحي والأطراف لم تر عيني قبلها في الكبر مثلها، ربما يبلغ كل من طولها وعرضها مائة ذراع بذراع العمل تخمينًا وحدسًا لا تحقيقًا وعلمًا، وهي مبنية بالحجر من جنس ما بُنيت به القلعة من لونه، وكونه منحوتًا وهي غائضة في الأرض، بحيث إذا جاءت الأمطار وسال الوادي امتلأت فانتفع بها الحاج إذا أرادوا" (الخياري،

---

100. القيسارية: جمعها قياسر وقيساريات، والكلمة يونانية الأصل، تطلق على السوق المغلق بأروقة تحيط بصحن مكشوف حوله عدد كبير من الدكاكين والمشاغل، وربما ضمَّ أماكن إقامة للمسافرين والسكن، ومن تسمياتها المرادفة: الخان، الفندق، الوكالة (الشهابي 1999، 2: 134).

101. الصالحية: قرية كبيرة ذات أسواق وجامع في لحف جبل قاسيون من غوطة دمشق، وفيها قبور جماعة من الصالحين (الحموي، 3: 442).

102. قاسيون: هو الجبل المشرف على مدينة دمشق، وفيه عدة مغاور، وفي سفحه مقبرة أهل الصلاح، وهو جبل معظم مقدس، تُروى فيه آثار وللصالحين فيه أخبار (الحموي، 4: 335).

103. أرض عاتكة: خارج باب الجابية من دمشق، منسوبة إلى عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بن حرب أم البنين، وهي زوجة عبدالملك بن مروان (الحموي، 1: 182).

1: 48)، وزارها محمد بن عبدالله الحسيني الموسوي الشهير بكبريت سنة 1040 هـ برفقة قافلة الحج وقال عنها "ثم أتينا على المعظم وهو وادٍ فيه قلعة عثمانية عُمرت سنة إحدى وثلاثين وألف، غير انه لم يكن بها ماء وقد أشرفت على الدمار... وعند القلعة بركة عظيمة متسعة جدًا، يأتيها الماء من الأمطار، ولها خمس وعشرون درجة، ولما وردناها وجدنا منها خمسة عشر درجة في الماء الفرات" (كبريت 1965: 235، 236).

10- بنى جامعًا "في صالحية دمشق الشام في سفح جبل قاسيون، وله فيه مدفن وعليه قبة معقودة بالحجر وهو مدفون فيه، وقد خرب الآن جامعه واندثر، وما بقي منه غير الأثر، واقتلع الناس أحجاره وطمسوا آثاره" (النابلسي 1986: 483).

11- بنى المدرسة النحوية في القدس على طرف صحن الصخرة من جهة القبلة سنة 604 هـ، كان يُدرس فيها الكتاب لسيبويه (كرد علي، 6: 117).

العلم في حياة المعظم

كان الملك المعظم عيسى محبًا وداعمًا للعلم والعلماء، ففي سنة 617 هـ "كتب الملك المعظم صاحب دمشق إلى سيف الدين الآمدي يستدعيه ليكون عنده بدمشق، ووعده الوعود الجميلة، فهرب إليه فولّاه الملك المعظم تدريس المدرسة العزيزية، وأنزله في دار بدرب عزيزة وأحسن إليه" (ابن واصل 5: 37، 38)، "وكان يحضره الملك المعظم ليالي الجمع مع علماء دمشق، ويسمع بحثه ومجادلته" (ابن واصل، 5: 38)، كما أنه "حفظ القرآن وبرع في المذهب، وعُني (بالجامع الكبير) وصنف له شرحًا كبيرًا بمعاونة غيره، ولازم التاج الكندي، وتردد إليه إلى درب العجم من القلعة، وتحت إبطه الكتاب، فأخذ عنه (كتاب سيبويه)، وكتاب (الحجة في القراءات)، و(الحماسة)، وحفظ عليه (الإيضاح)، وسمع (مسند الإمام أحمد بن حنبل) وله (ديوان شعر)، سمعه من القوصي فيما زُعم، وله مصنف في العروض، وكان ربما لا يقيم الوزن، وكان يتعصب لمذهبه، قد جعل لمن عرض (المفصّل) مائة دينار صورية، ولمن عرض (الجامع الكبير) مائتي دينار، وكان يبحث ويناظر" (الذهبي 1996، 22: 121)، "وكان المعظم يحب الأدب كثيرًا ومدحه جماعة من الشعراء المجيدين فأحسنوا في مدحه، وكانت له رغبة في فن الأدب... وقيل أنه كان قد شرط لكل من يحفظ (المفصل) للزمخشري مائة دينار وخلعة، فحفظه لهذا السبب جماعة، ورأيت بعضهم بدمشق والناس يقولون: إن سبب حفظهم له كان هذا، وقيل أنه لما توفي كان قد انتهى بعضهم إلى أواخره وبعضهم في أثنائه وهم على قدر أوقات شروعهم فيه، ولم أسمع بمثل هذه المنقبة لغيره" (ابن خلكان، 3: 494، 495)، "ولا يقطع الاشتغال بالقرآن والجامع الكبير وسيبويه" (النويري، 29: 94).

وكان من شيوخه في العلم الشيخ تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسن الكندي والإمام جمال الدين الحصيري، "وكان يتردد إلى الشيخين في معظم الأوقات وربما أتى إليهما ماشيًا" (ابن واصل، 4: 210)، ويذكر ابن واصل حب المعظم للقراءة "ولقد وقفت على نسخة من كتاب سيبويه وعليها خط الملك المعظم في عدة مواضع أظنها ستة، يقول في بعضها: أتممت هذا الكتاب مطالعة ومراجعة وأنا منازل مدينة أرسوف[104]، وفي بعضها يقول أتممته مطالعة ومراجعة وأنا بنابلس" (بن واصل، 4: 211).

ومن علمه أنه صنف كتابًا سمّاه "السهم المصيب في الرد على ابن الخطيب" وذلك ردًّا على كتاب "تاريخ بغداد" الذي ألَّفه الشيخ الحافظ أبو بكر أحمد بن ثابت، وفيه طعن على الإمام أبي حنيفة وأجاب فيه على كل الطعون الواردة في الكتاب (ابن واصل، 4: 212)، وكان عند المعظم جماعة من الفضلاء والعلماء لا يفارقونه في سفر أو في حضر، منهم "فخر القضاة نصر الله بن براقة المصري رحمه الله وكان فاضلًا في فنون الأدب والنظم والرسائل، ومنهم شرف الدين أبو المحاسن بن عنين الدمشقي كاتب الإنشاء" (ابن واصل، 4: 214). وفي شعبان من سنة 624 هـ "أمر المعظم الجمال عبدالله ابن الحافظ عبدالغني أن يرتب مسند الإمام أحمد على أبواب الفقه، فقعد في

104. أرسوف: مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا (الحموي، 1: 182).

الكلّاسة[105] ومعه جماعة من المحدثين، ومنهم الشرف الإربلي، فرتبوه، فمات المعظم وهم على ذلك" (ابن الجوزي 2013، 22: 284).

تواضع المعظم

ويصف كل من العمري وابن واصل تواضع المعظّم بأنه "قليل التكلف جدًا، لا يركب في السناجق السلطانية[106] في غالب أوقاته، بل يركب في جمع قليل، وعلى رأسه كلوتة[107] صفراء بلا شاش علم، ويتخرق الأسواق والطرق، ولا يُطرق بين يديه كما جرت عادة الملوك" (ابن واصل، 4: 210؛ العمري، 27: 167)، كما وصفه ابن واصل "ولقد رأيته بالبيت المقدّس في سنة ثلاث وعشرين وستمائة، والرجال والنساء والصبيان بالجامع الأقصى يزاحمونه ولا يردهم أحد عنه، وهذا المسلك لم يسلكه أحد من أهل بيته ولا غيرهم، ولما كثر هذا ضُرب به المثل، فكان الإنسان إذا فعل فعلًا لا تكلف فيه قيل: فعل بالمعظّمي" (ابن واصل، 4: 210)، "وكان لا يركب في غالب أوقاته بالعصائب، ويلبس كلوتة صفراء بلا عمامة، وربما مشى بين العوام حتى كان يُضرب المثل بفعله" (الذهبي 1996، 22: 122).

ومن تواضعه أنه "كان عديم الالتفات إلى ما يرغب فيه الملوك من الأبهة والتعظيم والمدح وغير ذلك، فكان ينهى نوابه على إمرة الحاج الشامي من مزاحمة الملوك في إطلاع الأعلام إلى رأس جبل عرفات، فكنت ترى علمه مركوزًا إلى جانب محمله تحت الجبل، وكان يركب وحده مرارًا كثيرة ثم يتبعه من شاء من غلمانه طاردين خلفه، وإذا كان بدمشق يأتي كل جمعة في الساعة الرابعة أو نحوها إلى تربة والده قبالة دار العقيقي[108]، يجلس فيها هو ومن معه من أمرائه وخواصه إلى أن يؤذن المؤذن لصلاة الجمعة، فيخرج حينئذٍ ماشيًا إلى تربة عمه صلاح الدين رحمه الله المجاورة للكلاسة فيُصلي الجمعة بها مع الناس، أقام على ذلك زمانًا" (أبو شامة 1947، 1: 398).

ومن تواضعه أنه عند البدء بحفر خندق في دمشق في بداية سنة 613 هـ "كان المعظم ومماليكه وعسكره ينقلون التراب، كل واحد يأخذ قفة يجعلها على قربوس[109] سرجه، ويمضون جميعًا مع المعظم نحو الميدان الأخضر[110] يفرغون القفاف، ويرجعون يفعلون ذلك كل يوم، ثم انقسموا فرقتين، فكان المعظم وعسكره ينقلون يومًا، وكان أخوه الصالح إسماعيل مع من انضم إليه من العسكر ينقلون يومًا" (أبو شامة 1947، 1: 263).

صفات المعظم العسكرية

وكان له معرفة ودهاء بالحرب استغلها ضد الصليبيين "وكان في أيام الفسخ[111] مع الفرنج يرتب النيران على الجبال، من باب نابلس إلى عكا، وعلى عكا جبل قريب منها يُقال له الكرمل، كان عليه المنورون، وبينهم وبين الجواسيس علامات، وكان له في عكا أصحاب أخبار وأكثرهم نساء الخيّالة، وكانت طاقاتهن في قبالة الكرمل، فإذا عزم الفرنج على الغارة فتحت المرأة الطاقة، فإن كان يخرج مائة فارس أوقدت المرأة شمعة واحدة، وإن كانوا مائتين

105. الكلّاسة: إحدى المدارس الشافعية في دمشق، متصلة بالجامع الأموي من شماله ولها باب إليه، انشأها نور الدين زنكي سنة 555 هـ، سميت بالكلاسة لأنها بُنيت مكان استخراج الكلس عند بناء الجامع الأموي، أمر صلاح الدين الأيوبي بترميمها، ودرس فيها كثير من الفقهاء والعلماء (كرد علي، 6: 86).

106. نوع من أعلام السلاطين والملوك وهي رايات صفراء صغيرة، وأول من حمل السنجق على رأسه من الملوك في ركوبه هو غازي بن زنكي أخو السلطان نور الدين محمود زنكي (القلقشندي 1914: 4: 8).

107. من كلاة وتعني القبعة وهي عبارة عن قبعة محشوة بالقطن (حلاق وصباغ 1999: 191).

108. دار العقيقي: تقع في حي الكلاسة بدمشق، وكانت في السابق دار أبي أيوب الملك الأفضل نجم الدين أيوب والد السلطان صلاح الدين الأيوبي، بُني مكانها المدرسة الظاهرية نسبة إلى السلطان الظاهر بيبرس البندقداري سنة 678 هـ (الشهابي 1999، 1: 281، 2: 194، 195).

109. القربوس: جِنْو السَّرج (الجزء المرتفع من السّرج)، للسّرج قربوسان، فأما القربوس المقدم ففيه العضدان وهما رجلا السّرج، والقربوس الآخر فيه رجلا المؤخرة (ابن منظور، 6: 172).

110. الميدان الأخضر: أكبر ميادين دمشق، كان يمتد بين التكية السليمانية وساحة الأمويين، ذُكر من العهد السلجوقي سنة 507 هـ، نظّمه السلطان نور الدين زنكي وأنشأ فيه مكانًا للحيوانات المصابة، وكان المماليك يمارسون فيه ألعاب الفروسية (الشهابي 1999، 2: 322).

111. الفتح عند (النويري، 29: 94).

شمعتين، وإن كانوا يريدون قصد حوران وناحية دمشق أشارت إلى تلك الناحية، وكذا إلى نابلس، فكان قد ضيَّق على الفرنج الطرق إذا قصدوا جهة سبق إليها بعسكره، وكان يعطي النساء الجواسيس في كل فسخ جملة كثيرة" (ابن الجوزي 2013، 22: 287؛ النويري، 29: 94).

وفي حادثة أخرى يرويها ابن الجوزي أن المعظم أرسل أحد الرهبان ليتجسس على جيش الإمبراطور فريدريك الثاني، حيث يقول فيها: "حكى لي سعد الدين مسعود والي الجولان قال: كنت واليًا بالشوبك، وكان بها راهب منفرد في بعض الجبال، فجاءني كتاب المعظم بنفيه، فنفيته، فغاب سنة، وجاءني بكتاب المعظم يقول: أعده إلى مكانه وتوصَّ به، فبحثت عن قصته، وإذا به قد بعثَ به إلى البحر كشف له أخبار الإنبرور (الإمبراطور) على وجهها، وإنما نفاه لئلا يُتهم فيتأذى، وأطلق له أرضًا يعيش منها وأعطاه مائة دينار" (ابن الجوزي 2013، 22: 288).

وكان للمعظم جيش قوي منظم "وكان عسكره قريب ثلاثة آلاف فارس، ولم يكن عند أحد من إخوته جند مثلهم، في فرط تجمُّلهم وحسن زيِّهم، وكان بهذا العسكر القليل يقاوم أخويه الملك الكامل والملك الأشرف ويباريهما، وكان الملك الكامل يخافه لما يتوهّمه من ميل عسكر مصر إليه ومحبتهم له، ولما يعلمونه من قيامه بأمر الجند وعنايته بهم، وكان الملك الكامل –مع سعة ملكه وعديد عسكره الذي يناهز اثني عشر ألفًا– لا يجسر على الخروج إلى الشام، ويظن أنه إن خرج إلى الشام انحاز أكثر عسكره إلى الملك المعظم، وحيل بينه وبين الديار المصرية، فكان لذلك يداريه ويهادنه في الظاهر، وكان الملك المعظم مع ذلك يداري أخاه الملك الكامل ويخطب له على منابر بلاده، ولا يذكر اسمه معه في غالب أوقاته، ويضرب السكة باسمه وكذلك يداري أخاه الملك الأشرف" (ابن واصل، 4: 209).

وكان "يوصف بالشجاعة والكرم والتواضع، ساق مرة إلى الإسكندرية في ثمانية أيام على فرس واحد، واعدَ القصّاد وأصحاب الأخبار، وكان على كتفه الفرنج، فكان يظلم، ويدير ضمان الخمر ليستخدم في ذلك، وكان يركب وحده مرارًا ثم يلحقه مماليكه يتطاردون" (الذهبي 1996، 22: 121).

ومن مواقفه التي تدل على فطنته السياسية أنه صلب رئيس عصابة يُسمى ابن الكعكي سنة 622 هـ في سوق الغنم العتيق على طريق الميدان الأخضر (أبو شامة 1947، 1: 378) وذلك بسبب خوف المعظّم أن يسيطر على دمشق "وكان ابن الكعكي رأس حزب، وله جماعة أتباع وكانوا ينزلون على الناس في البساتين، ويقتلون وينهبون، والمعظّم يوم ذاك بالكرك، وبلغه أن ابن الكعكي قال لأخيه الملك الصالح إسماعيل: أنا آخذ لك دمشق، وكان إسماعيل ببصرى، فكتب الملك المعظّم إلى والي دمشق، أن يصلب ابن الكعكي ورفيقه منكسين، فصُلبا في العشر الأواخر من رمضان" (ابن الجوزي 2013، 22: 274؛ النويري، 29: 86)، وكان رفيق ابن الكعكي رجلًا خياطًا، وقد شهد له أهل دمشق بالصلاح والبراءة من أعمال ابن الكعكي (ابن الجوزي 2013، 22: 472).

من شعر المعظم

وكان شاعرًا، ومن شعره وقد مرض بالحمى (ابن العماد 1991، 7: 202):

زارت ممحّصة الذنوب وودّعت
تبّا لها من زائر ومودع
باتت معانقتي كأنّي حبُّها
ومقيلها ومَبيتُها في اضلعي
قالت وقد عزمت على ترحالها
ماذا تريد ؟ فقلت: ألّأ ترجعي

وله أيضًا:

هجم الشتاء ونحن بالبيداء
فدفعتُ شِرّته بصوت غنّاء
وجمعتُ قافات يزول بجمعها
همّ الشتاء ولوعة البرحاء
قدح وقانون وقاني قهوة
مع قينة في قبة زرقاء

رأي معاصريه به

كان المعظم محط إعجاب وتقدير معاصريه، فقد أمر الخليفة العباسي رسوله إلى الملك المعظم سنة 623 هـ أن يخاطبه "بشهريار الشام"، وقال عنه الملك الظاهر ملك حلب سنة 612 هـ "والله هو واسطة العقد

وعين القلادة، ولولا همّته وأنه مشغول بجهاد الأعداء لما قرّ لي قرار"، وقال عنه أخوه الملك الكامل "وهل أنبت الشعر على رؤوسنا إلا الملك المعظم، ومن حفظ عليّ البلاد وأحياني بعد الموت غيره" (ابن الجوزي 2013، 22: 292).

المراجع العربية

ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم
1987 **الكامل في التاريخ**، المجلد 4، تحقيق الدكتور محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى.

ابن الأثير، أبو الحسن علي بن ابي الكرم
2003 **الكامل في التاريخ**، المجلد 10، تحقيق الدكتور محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الرابعة.

ابن بطوطة، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي
1987 **تحفة النُّظَّار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار**، الجزء 1، قدم له وحققه الشيخ محمد عبدالمنعم العريان، دار إحياء العلوم، بيروت، الطبعة الأولى.

ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن
1929 **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، الجزء 6، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.

ابن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف
2013 **مرآة الزمان في تواريخ الأعيان**، الجزء 22، تحقيق إبراهيم الزيبق، دار الرسالة العلمية، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى.

ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين
1978 **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، المجلدات 1، 2، 3، 4، 5، 7، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت لبنان.

ابن شداد، بهاء الدين بن شداد
1994 **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين)**، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية.

ابن العديم، المولى الصاحب كمال الدين أبو القاسم
1968 **زبدة الحلب من تاريخ حلب**، الجزء 3، تحقيق سامي الدهّان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق.

ابن العماد، الإمام شهاب الدين أبو الفلاح
1991 **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، المجلد 7، تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، سوريا، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى.

ابن العميد، المكين جرجس
2011 **أخبار الأيوبيين**، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، مصر.

ابن كثير، أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي
1988 **البداية والنهاية**، الجزء 13، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، الطبعة السابعة.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد
1996 **لسان العرب، المجلد 6**، دار صادر، بيروت، لبنان.

ابن واصل، جمال الدين محمد
2004 **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، الأجزاء 1، 2، 3، 4، 5، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال والدكتور حسنين محمد ربيع.

أبو شامة، شهاب الدين عبدالرحمن
1947 **المذيل على الروضتين**، الجزء 1، تحقيق إبراهيم الزيبق، دار الرسالة العالمية.
2002 **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، الأجزاء 1، 2، 3، وضع حواشيه وعلق عليه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى.

أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن محمد
د.ت. **المختصر في أخبار البشر**،الجزء 3، تحقيق الدكتور محمد زينهم محمد عزب والأستاذ يحيى سيد حسين، دار المعارف، القاهرة، مصر.
2008 **تقويم البلدان**، اعتنى بتصحيحه وطبعه رينود مدرس العربية وألارون ماك كوكين ديسلان، طُبع في مدينة باريس، دار الطباعة السلطانية، دار صادر، بيروت، لبنان.

الأصفهاني، أبو عبدالله محمد بن صفي الدين الملقب عماد الدين
1987 **البرق الشامي**، الجزء 3، نسخة إلكترونية.

آن بلنت
2007 **الحج إلى نجد مهد العرق العربي**، الجزء 1، ترجمة صبري محمد حسن، تقديم ومراجعة رعوف عباس حامد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى.

البادي، عوض
2002 **الرحالة الأوروبيون في شمال الجزيرة العربية، منطقة الجوف ووادي السرحان** 1845–1922، نصوص مترجمة، الدار العربية للموسوعات، الطبعة الثانية.

البخيت، محمد عدنان
2009 **مملكة الكرك في العهد المملوكي**، منشورات وزارة الثقافة، عمان، الأردن.

البغدادي، صفي الدين عبدالمؤمن بن عبدالحق
1992 **مراصد الاطِّلاع على أسماء الأمكنة والبقاع**، المجلد 1، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجليل، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى.

بيل، جيرترود
2013 **العامر والغامر، رحلة من القدس إلى أنطاكية عام 1905**، ترجمة وفاء الذهبي، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، الطبعة الأولى.

2016 **رسائل جيرترود بيل 1899–1914م**، ترجمة رزق الله بطرس.
الجزيري، عبدالقادر بن محمد بن عبدالقادر
2002 **الدرر الفرائد المنظّمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظّمة**، المجلد 2، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى.
الحصان، عبدالقادر محمود
1999 **محافظة المفرق ومحيطها عبر رحلة العصور**، مطابع الأرز، الطبعة الأولى.
حلاق، حسان وصباغ، عباس
1999 **المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية ذات الأصول العربية والفارسية والتركية**، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى.
الحموي، الشيخ الإمام شهاب الدين أبو عبدالله
د.ت. **معجم البلدان**، الأجزاء 1، 2، 3، 4، 5، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
الخطيب، إبراهيم ياسين
2001 **القدس بين أطماع الصليبيين وتفريط الملك الكامل الأيوبي**، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى.
الخياري، إبراهيم بن عبدالرحمن الخياري
د.ت. **تحفة الأدباء وسلوة الغرباء**، الجزء 1، تحقيق رجا محمود السامرائي.
الدمشقي، عبدالقادر بن محمد النعيمي
1990 **الدارس في تاريخ المدارس**، الجزء 1، أعد فهارسه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى.
الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان
1991 **الإشارة إلى وفيات الأعيان**، تحقيق إبراهيم صالح، دار ابن الأثير، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى.
1993 **الإعلام بوفيات الأعلام**، المجلد 1، تحقيق مصطفى بن علي عوض وربيع أبو بكر عبدالباقي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى.
1997 **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، الجزء 43، تحقيق الدكتور عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، الطبعة الأولى.
1996 **سير اعلام النبلاء**، الأجزاء 20، 21، 22، 23، تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي والدكتور بشار عواد معروف والدكتور محيي هلال السرحان، مؤسسة الرسالة بيروت لبنان، الطبعة الحادية عشرة.
الزركلي، خير الدين
2002 **الأعلام ـ قاموس تراجم**، الجزء 8، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الخامسة عشر.
الشهابي، قتيبة
1999 **معجم دمشق التاريخي**، الجزآن 1، 2، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق، سوريا.
شيخ الربوة، شمس الدين أبو عبدالله
1865 **نخبة الدهر في عجائب البر والبحر**، طبع في مدينة بطرسبورغ، مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية.
الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك
2010 **الوافي بالوفيات**، الجزء 23، باعتناء مونيكا غرونكه، الكتاب العربي للنشر، برلين، الطبعة الأولى.
الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير
1965 **تاريخ الرسل والملوك**، الجزء 7، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية.
العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى
2010 **مسالك الإبصار في ممالك الأمصار**، الأجزاء 2، 3، 27، تحقيق مهدي النجم وكامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى.
غوانمة، يوسف حسن درويش
1980 **إمارة الكرك الأيوبية**، منشورات بلدية الكرك، عمان، الأردن.
2015 **التاريخ السياسي للأردن في عصر دولة المماليك الأولى**، منشورات وزارة الثقافة، عمان، الأردن.
فوردر، آرتشيبولد
2011 **مغامرات بين العرب**، ترجمة مارية عثمان، هيئة أبوظبي للثقافة والتّراث.
القلقشندي، أبو العباس أحمد
1914 **صبح الأعشى**، الجزء 4، دار الكتب الخديوية، المطبعة الأميرية، القاهرة، مصر.
كبريت، محمد بن عبدالله الحسيني
1965 **رحلة الشتاء والصيف**، تحقيق وتقديم وفهرسة الأستاذ محمد سعيد الطنطاوي، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية.
كرد علي، محمد
1954 **خطط الشام**، الجزء 6، مكتبة النوري، دمشق، سوريا، الطبعة الثانية.
لورنس، ت.أ.، المعروف بلورنس العرب
1963 **أعمدة الحكمة السبعة**، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى.
المغربي، ابن سعيد
1958 **بسط الأرض في الطول والعرض**، تحقيق الدكتور خوان قرنيط حينيس، تطوان، معهد مولاي الحسن.
المقريزي، تقي الدين أبو العباس
1997 **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، الجزء 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى.
موزيل، لويس
2010 **في الصحراء العربية، رحلات ومغامرات في شمال جزيرة العرب 1908-1915**، ترجمة عبدالإله الملاح، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الاولى.

ميرل، سيلاه
2010 **شرق الأردن سجل رحلات وملاحظات في بلاد مؤاب وجلعاد وباشان**، ترجمة محمد رفيق النجار، مراجعة وتدقيق سمير عزت نصار، الأهلية للنشر والتوزيع عمان، الأردن، الطبعة العربية الأولى.
النابلسي، عبدالغني بن إسماعيل
1986 **الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز**، تقديم وإعداد أحمد عبدالمجيد هريدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب
2003 **نهاية الأرب في فنون الأدب**، الجزء 29، تحقيق الدكتور نجيب مصطفى فواز والدكتورة حكمت كشلي فواز، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
هاردنج، لانكستر
1965 **آثار الأردن**، تعريب سليمان موسى، منشورات اللجنة الأردنية للتعريب والترجمة والنشر، عن العددين 1 و2 من السنة الثامنة، الطبعة الأولى.
هوبير، شارل
2003 **رحلة في الجزيرة العربية الوسطى 1878-1882م**، ترجمة إليسار سعادة، كتب، بيروت، لبنان.

المراجع الأجنبية

Butler, H.C.; Frederick A.N. and Edward R.S.
1930 *Syria, Publications of the Princeton University Archaeological Expedition to Syria in 1904–1905 and 1909*, Leyden, Division 1.